شيء من التباريح

سيرة ذاتية .. وهموم ثقافية

ألفـــه
أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
(محمد بن عمر بن عبدالرحمن العقيل)
ـ عفا الله عنه ـ

الطبعة الأولى سنة ١٤١٥هـ

دار ابن حزم للنشر والتوزيع
ص . ب : ٢٢٥٦٦ ـ الرياض : ١١٤١٦
هاتف وفاكس : ٤٦٢١٥٤٢

ⓒ دار ابن حزم للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

الظاهري، أبو عبدالرحمن بن عقيل
شيء من التباريح
١٢٨ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك ٩-٠٢-٧٩٥-٩٩٦٠
١- السعودية - المقالات العربية   أ- العنوان
ديوي ٠٨١,٥٣١   ١٥/١٦٨٤

رقم الإيداع ١٥/١٦٨٤
ردمك ٩-٠٢-٧٩٥-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ

محتويات الكتاب

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي جعل خيرنا من طال عمره وحسن عمله، وقد منَّ عليَّ سبحانه بفسحة العمر، والتردد في الأثر . . وهو المستعصم سبحانه والمأمول بأن يجعل غدنا خيراً من أمسنا حتى نلقاه راضياً عنَّا، فتكون كل لحظة من مستقبل العمر ترفعنا زلفى لديه سبحانه.

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، فقد أرسله الله رحمة للعالمين، وكانت أمته مرحومة عوضَّها الله عن قصر أعمارها بمضاعفة أجورها، وبخصائص تزكيها عند مولاها، وأهم تلك الخصائص يسر التشريع ورفع الحرج.

فللَّه الحمد كثيراً.

أما بعد: فإن رئيس كتبة المجلة العربية الأستاذ حمد القاضي استخلص مساهمتي القلمية لفن السيرة الذاتية وتدبيج الهموم الثقافية، فكانت التباريح.

واستمرت التباريح بنشاط، ثم تكاسلتُ أو عجزت عن المواصلة لأنني كنت موظفاً مديراً للإدارة القانونية بوزارة الشؤون البلدية والقروية، ومدرساً بجامعة الملك سعود، وصاحب برنامج إذاعي يومي هو تفسير التفاسير، مع دروس في المسجد والبيت، إضافة إلى الارتباط الصحفي الكثير . . فأصابني إرهاق، ونجمت أعباء القولون.

ولم تعاودني صحتي إلا بعد ترك كل هذه الأعمال باستثناء العمل الصحفي القليل.

وفي تلك الأثناء كان عجزي عن الانتظام في كتابة التباريح، ونتج عن

ذلك المتعة ـ لا المعركة ـ الأدبية عن قرار ل والوصل، وذلك أول مواد هذه الضميمة من التباريح، والله المستعان.

كتبـــه

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

ـ عفا الله عنه ـ

الرياض/ دارة ابن حزم

٢٥/ ٥/ ١٤١٥هـ

تباريح كتابية

التباريح والقاضي وقرار الفصل

قال أبو عبدالرحمن في قرار الفصل: منذ خمس سنوات وأنا أعاني أعباء القولون النكدة، وإنها إن شاءالله لمن مكفِّرات الذنوب، فما أحوجني إليها منذ علا ثغرة الميلاد نقيع الشيب.

وتحملت أعباء القولون لكثرة همومي، فكثرة الهموم قدر من كثرت رعيته!.

ولكثرة مشاغلي، وكثرة المشاغل قدر طويلب علم يريد أن يعرف كل شيئ، ويريد أن يكتب عن كل ما عرف!!.

فعندما أعجز عن تحمل مسؤوليتي العلمية يحدث لي تأزم نفسي، وأعباء قولون جسمية.

وكثيراً ما يتبع ذلك روائع أدبية تكتب بماء الدموع!.

فمرَّة تأزمتُ وأنا طالب بمعهد القضاء العالي فكتبت مقالة: «ليت للبراق عينا»!.

وأظنها نشرت بكتابي هكذا علمني ورد زورث.

وإلى الآن تغالطني نفسي بأنها من الشعر.. الشعر المنثور، وليس الشعر المبعور (بعر الكبش)!.

وتأزمت مرة من أغيلمة الصحافة وخشيت أن يقال عني: السيف أمضى من العصا!!.. فطلقت الصحافة، وكتبت «آن له أن يعجم».

وتبارى فنانو الحرف يتجاوبون مع هذا الشعر المنثور كمعالي الدكتور القصيبي، ومعالي الأستاذ الرفاعي.

وليس هذا فحسب، بل سمعت أخي الدكتور علي النجعي يلقي كلمتي في أحد برامج السهرة الإذاعية بصوت متهدج ونفس مكلوم.

إلا أن قراريَّ الجريئين «ليت للبراق عيناً» و«آن له أن يعجم» لم يصدرا إلا بعد مخايرة وعناء.

وهما كقرار الفصل الذي أرسله إليَّ أخي الأستاذ أبو عبدالله حمد القاضي بخط يده في ١٧/ ٢/ ١٤٠٩هـ.. هو قرار بفصلي من المجلة العربية وتجميد تباريجي!!.

وإذا كانت نبرة الأستاذ في قرار الفصل باكية فإن تعليلاته كانت لتبريد بعض الأسى.

فقد استعان بالله وتجرَّأ على إصدار القرار ـ كما تجرَّأتُ في قراريّ ـ بمسوغات منها:

أن المجلة تعبت من متابعتي لكي تلتزم بزاويتي.

ومنها أن أستاذ الجيل حمد الجاسر غطى ذكرياته بعشرات الحلقات، ولم تكن لي به أسوة حسنة.

فيا ابن القضاة، ويا ابن أثقل أمة على الدجال: لو نويت هجري لكان الأمر أسهل، لأنني حينئذ لا أعرف نيتك فأقول: لعل له عذراً وأنت تلوم!!.

أما أن تصدر بهجري قراراً: **فتلك أول مغامرة وجدانية ترتكبها يا أبا عبدالله**، ويحفل بها أدب العواطف.

وإياك إياك يا ابن القضاة أن تتكل على موروث الثقافة الأدبية فتقول: دم المحب مطلول!!.

فلقد حظيت هذه الأيام بشعر يحلف بأن دم المحب لا يطل. . كتبته وسمعته بترنم يثب بالقلوب لناصر بن علي السهلي يقول:

قبـل التفـرق وقبـل الـروح تنسلي
وأموت من سبتك وارث لك طلابة

إنني أخاف عليك يا أبا عبدالله أكثر من مطالبة!.
سيقول لك مثلاً قلبك حينما تفقد التباريح:

لـو كـان لي قلبـان عشـت بـواحـد
وتـركـت قلبـاً في هـواك يعـذب

سيقول لك مثلاً معالي الوالد الدكتور الخويطر: هدع هدع يا ابن القضاة. . أترانا نصبر عن تباريح تصور همومنا، وتبدي ما شغلتنا أعباء الدولة عن صهرجة قنواته!!.

قال أبو عبدالرحمن: على أنني كتبت ذلك أيام كان معاليه في كسل قلمي إلا ما جمعه من كتاباته بتوقيع حاطب ليل، أو عن بيبرس وما حوله.

أما الآن فقد أعطى القلم مسؤوليته العلمية صحافة وتأليفاً.
سيقول لك مثلاً شاد من النيل ـ وأنت تعلم كثرة الرسائل التي تصل إليَّ بواسطتك ـ:

واذكـــروا صبـــا إذا غنـــى بكـــم
شرب الـدمـع وعـاف القـدحـا

ألا ما أقساك أيها الهاجر، وإنما يمنعني من جلدك بقافية عصماء غاضبة قول أبي تمام:

أمـــا المعـــاني فهـــي أبكـــار إذا
نصـــت ولكـــن القـــوافي عـــون

ثم بربك أيها القاضي هل سمعت تالياً لتباريحي يقول: إلهي زيدت الأرض ثانية[١]!!.

وأقلقتني يا أبا عبدالله عندما عيرّتني تلميحاً بالعجز عن مواكبة شيخي ووالدي ومستودع البر بي حمد الجاسر!!.

فهل تريد من يافع ينحت من صخر كمعمم يغرف من بحر!!.

إن شيخي حمد الجاسر رجل محسَّد جاب أجزاء المعمورة شرقاً وغرباً، ولقي الأحمر والأسود، وشافه عادات الشعوب وثقافاتها، ونقب في خزانات العالم.

وعايش تاريخ صقر الجزيرة العربية الملك عبدالعزيز رحمه الله، وترحل في البوادي إماماً وقاضياً ومدرساً ومتاجراً ببضاعة تسد الرمق، وأنجاه الله من سرية عزيز الدويش التي لم ينج منها سوى إبراهيم بن عرفج رحمه الله على فرسه.

وعندي أحدية من أحد مشايخ البادية يداعبه.

وكان عقلاً واعياً، وعيناً بصيرة لماحة، وأذناً حافظة عندما كان العبقري من أدباء جيله من يقول نظماً، أو يشعر بالهجيني والسامر!!

وعنندما كنت ألعب بالكعاب، وأمسح العرنين بالردن كان الشيخ في دور من يجتر من غاربه فيستذكر محفوظه.

فأنى ـ ثم أنى ـ أن يكون متحي كبحره، وغرفتي كغربه!!.

فهذه واحدة فاحفظها عني.

---

(١) إشارة إلى قول الشاعر:

مشى فدعا من ثقله الحوت ربه　　　وقال: إلهي زيدت الأرض ثانية

وكانوا يزعمون أن الحوت يحمل الأرض!!.

ثم إن الشيخ قليل الرعية إلا من محبيه، وأنا كثير الرعية إلا من المعاون.

وقد أسلفت لكم أعباء من كثرت رعيته!!.

وإذا عاتبتك فإنني أُعتبك بأن التأزم العلمي، وهموم الرعية، والنكد القولوني.. كل ذلك أقعدني عن دروسي بالمسجد والبيت وأجَّلت ذلك إلى عام قابل.

وأقعدني كل ذلك عن تدريسي بمعهد الإدارة العامة.

وأقعدني كل ذلك عن تدريسي بجامعة الملك سعود.

وأقعدني كل ذلك عن برنامجي الإذاعي تفسير التفاسير فأجلت ذلك إلى عام قابل.

وهممت بأن أتقاعد من عملي الرسمي بوزارة الشؤون البلدية والقروية[1] فلقيت كريم العطف والبر من رجل العلم والعمل والصمت معالي الوزير الأستاذ إبراهيم العنقري.

وتفرغت لأعمال تأليفية كلفت بها من فضلاء أجلاء فمنحتها ما بقي من صحتي وراحتي، وأعطيتها حقها بإذن الله، وإنها على وشك الظهور دفعة واحدة.

وغالبت نفسي على الوفاء لجريدة الجزيرة بيومية، وللمجلة العربية بتبريحة.

وإنما تأخرت التبريحة هذا الأسبوع فأقمت الدنيا وأقعدتها يا أبا عبدالله، ولم تدر أنني مشغول مع ابني أبي الوفاء علي بن محمد بن عقيل

---

(١) ثم تقاعدت منذ ١/ ١/ ١٤١٤هـ.

وقد أجريت له عملية في المثانة على إثر عملية في الرأس من حمى شوكية .

ولم تدر أن ابني أبا محمد عبدالوهاب بن محمد رُوِّع بصدمة طفل طائش حطم أربع سيارات، وسلم الابن من جروحه وبقيت الروعة في ركبي وجوانحي .

ويشهد على ذلك الأستاذ محمد العوين وأظنه ابن بطوطة .

وعلى أي حال فإنني آذن لك يا أبا عبدالله بما اقترحته من إيقاف التباريح والاعتذار للقراء . . ولكن لعام واحد فقط لأنني غير قادر على الالتزام خلال هذا العام .

وما بعد العام فالزاوية ملكي فقد أحييتها إحياء شرعيًا، وعرف القاصي والداني حدودها وأبعادها، والله المستعان .

رفقا بنا يا صاحب التباريح..!

وقد قابل الأستاذ حمد القاضي «الصياح بصياح»، وعنون مقاله الذي ردّ به عليه بـ : «رفقاً بنا يا صاحب التباريح»، فقال :

قال أبو عبدالله حمد القاضي ـ عفا الله عنه ـ إن حالات الندم في حياته قليلة جدًّا، فهو يسعى جهده ألا يقول أو يعمل شيئاً يندم عليه، ومع هذا لن يركب حصان الغرور أو الثقة، فهناك حالات ندم عليها في حياته ولعل أقربها تلك الوريقة البيضاء التي تهادت إلى أستاذي الأديب المؤرخ الفقيه أبي عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري التي أطلق عليها خطاب الفصل.

ومن أبو عبدالله القاضي حتى يصدر قراراً بفصلك أو بالأحرى حجبك عن قرائك في زاويتك تباريح بمجلتك العربية؟!.

فرفقاً يا صاحب التباريح، فصاحبك لايزال ذا قلب رقيق تأسره النسمة، وتسحره الهمسة، فكيف له بالقسوة، وهو من قوم قال شاعرهم:

قـدت الجحـافـل والبـوارج قـادراً
مــالي ضعفــت فقــادني جفنــاك

وهو لايزال على ذلك العهد الذي عهدته عليه يوم قلت في النغم الذي أحببته والذي أطعمته للنار أخيراً:

نحـــن قلبـــان تيمتنـــا عهـــود
كيــف ننســى مــا وثقتــه الجفــون

قال أبو عبدالله القاضي حفظ الله لسانه، وسدَّد سهامه: ما عهدتني إلا عصي الدمع ليس لأن شيمتي الصبر، لكن لأن الدمع الذي ينزف في الصدر ينوب عن الدمع المنسكب على الخد، وهكذا ـ يا أبا عبدالرحمن ـ وجدت نفسي في إحدى الحالات التي رأيت فيها دمعة تفر من عيني إلى وجنتي بعد قراءة مقالتك الشجية القرار الأخير التي نشرتها في صفحة اليوميات في هذه الجريدة الأحد الموافق ٢٨/ ٢/ ١٤٠٩هـ.

وأشهد الله قبل أن أشهد العدول أنها أصابت مني مقتلاً، وأعقبتني ألماً وندماً. . ولو استقبلت من أمري ما استدبرت ما كنت خططت تلك الوريقة، ولا بعثت إليك تلك الكليمة، ولكن الحذر لا يغني من القدر.

وقد كنت أستشرف أنك بعد قراءتها التمست لتلميذك عذراً على ما سوف يأتي بيانه، ويجيء تبيانه، ولكن قلبك الظاهري الرقيق ـ وما أرقّ قلوب الظاهريين ـ لم يستطع احتمال ذلك العتب، وإن كان جاء من تلميذ في كلمات خفيفة كالحبب، ويظهر أنك يا أبا عبدالرحمن فهمتها على أنها من ظلم ذوي القربى فكانت على قلبك كالحسام المهند.

ولعل ما حصل لي معك أحد بلايا مهنة الوراقة وما أكثر بلاويها، وحسبنا نحن الورَّاقين ـ وأنت رائدهم ـ أن مهنتهم لا تورق في قلوبهم إلا تعباً!.

قال أبو عبدالله القاضي: أما غضبتك عليَّ فلم أحتملها، وأنى لي باحتمالها وأنا الذي استشرف رضاك فكيف أقدر على غضبك؟.

وإذا كنت رضيت عليَّ ذات يوم حتى سلكتني في سلك الظاهريين ـ وكان هذا يعني قمة رضاك علي ـ فكنت مع الظاهريين الذين رضيت عنهم كالقصيبي غازي، والماجد عبدالله، والصالح أحمد، والظاهريات كالسقاف خيرية، والخزرجي عاتكة.

واليوم أراك سللت سيف الغضب، وأبديت ناب العتب، وعسى ألا تكون حالي معك محبًّا قليل حظ، فتكون الحسنات ذنوباً، والمزايا رزايا!.

أما بعد: فوالذي نفس أبي عبدالله القاضي بيده ما كتبت لك ذلك الخطاب إلا ليكون فصل الخطاب، لتعود إلى قرائك عاجلاً، كذلك الذي كان عنده علم من الكتاب فأتى بعرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إليه حاجب الأبصار.

قال أبو عبدالله القاضي الوراقي (نسبة إلى مهنة الوراقة): لقد أسميت تلك الوريقة بخطاب الفصل، وكيف لأبي عبدالله بشؤون الفصل، وهو الذي لا يعرف إلا واو الوصل، وإن رأيت أن تستفتي في شأن تلك الوريقة: هل هي قرار فصل، أم خطاب وصل، فلنسأل فقيه نظام الخدمة ولوائحه معالي الأستاذ تركي خالد السديري، ولن يضنَّ علينا بالجواب، وبالرد على الخطاب؟.

وحدث أبو عبدالله القاضي، طالباً الصفح، وناشداً العفو قائلاً: إن كان في الوريقة إياها كليمة غير موزونة فأولى بأبي عبدالرحمن الصفح، وهو من الكرام الذين إذا قرأوا ستروا القبيح وأظهروا الحسنا، وإن أعقل الناس أعذرهم للناس كما تقول العرب، وأنت من أنت عالماً سمحاً وظاهريًّا دمثاً.

أما إذا أصررت على الغياب طوال العام، فإن الشوق إليك سيكون كالضرام، وسوف يلجأ قراؤك إلى أن يأطروك على الكتابة أطراً، ويعيدوك إلى التباريح فوراً، وإن امتنعت فسوف نلجأ إلى صاحبك ومشرفنا أبي محمد عبدالعزيز الخويطر، ولا يعرف الفضل إلا أهل الفضل، وهو الذي ستكون رغبته أمراً، ولا أشك أنك لن تستطيع لطبه ردًّا.

قال أبو عبدالله القاضي حفظ الله لسانه، وطهَّر أردانه: عندما حدثنا أبو عبدالرحمن غاضباً، للرمح عارضاً، وجب علينا أن نبين له السبب فنقول: إن أبا عبدالله الوراق ما بعث بتلك الوريقة التي أدخلها أبو عبدالرحمن التاريخ إلا بعد أن تعب هو، ونصب زملاؤه في المجلة العربية من كثرة الملاحقة التي كادت أن تصل إلى المطاردة، فمن هاتف بالليل إلى هاتف بالنهار، ومن دار إلى دار، فعندما نتصل في دارتك دارة داوود الظاهري كما أسميتها في حي سلطانه المحروس يجيئنا الرد أنك قد ذهبت إلى دارتك دارة ابن حزم الظاهري، بحي الملز المعمور.

وكنا عندما نتصل بك بالشتاء تقول: هذا أوان القر والصر.. وإن اتصلنا بك بالصيف قلت: هذه حمارة القيظ.

وعندما نلحف بالسؤال يجيئنا الجواب أن الشيخ وفقه الله بالمسجد يصلي ويسجد، وآونة في دار الإذاعة يسجل التفسير بأسلوبه المميز البصير.

وكم مرَّة أخرنا طباعة إحدى الملازم لعل التباريح تدركها، وكم لقينا من عناء التأخير ولوم المطبعة على كثرة التسويف، وكدنا في بعض الأعداد من شدة حرصنا على تباريحك وخشية افتقاد القارىء لها.. كدنا نملأ صفحتك البيضاء بصورة لك محناة لتعبئة مكان الزاوية حتى لا تخرج للقراء خالية.

أرأيت الآن حرصنا على هذه التباريح رغم إتعابها لنا؟.

ولكننا مع هذا نعتبر تعبها راحة فمثلك من يتعب من أجله، وحسبنا بتقدير الفاضل أبي مازن العنقري لك الذي ثمن علمك وأعمالك وشاقته تباريحك وتغاريدك.

قال أبو عبدالله : ومع كل ذلك لو علمنا عن تلك الأسباب المؤلمة التي شرحتها في مقالتك الشجية لما كتبنا لك سطراً، وما بعثنا لك طرساً، وكنا نلتمس لك عذراً، فقد آلمنا ما شرحته من آلام القولون، ومن إجراء عملية لابنك أبي الوفاء علي، ومن الحادث الذي جرى لابنك أبي محمد عبدالوهاب، ثم قبل ذلك وبعده كثرة الرعية التي أصبح لكل واحد منهم قضية، ولا نملك هنا إلا أن نحمد الله معك على سلامة الأبناء، ونسأل الله أن يخفف عنك من آلام هذا القولون لتعود إلى مجلتك مجلياً، وإلى حلقات مسجدك معلماً، وإلى جامعتك محاضراً، وإلى مستمعيك محدثاً.

ثم إلى مجالس محبيك تسعدهم بغزير علمك، وتطري جلساتهم بطرائفك، كمثل تلك الطرفة التي ترويها عن أحد أبناء شقرائك في القديم، عندما كنت تصلي صلاة القيام[1]، وكان يصلي بجانبك رجل أمي سليم النية وكنت كلما سجدت سمعته يدعو مردداً هذا الدعاء : رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني، فلم تستطع عليه صبراً.

وحال تسليم الإمام أمسكت به ناصحاً وقائلاً له بأسلوبك اللطيف : كيف تدعو بهذا الدعاء هل أنت زوجة عمران؟[2].

وأرشدته إلى الدعوات المناسبة له كرجل لا امرأة.

أتراك نسيت هذه الحكايا أم أنسيتها بسبب آلام القولون وهمومه أرجو ألا يكون ذلك كذلك.

قال أبو عبدالله عفا الله عنه : إن قراءك يا أبا عبدالرحمن يعرفون أنك فقيه ومؤرخ وكاتب ومفسر وشاعر فصيح لكن أغلبهم لا يعرف أنك

---

(١) القصة أرويها عن الوالد عمر : عن الشيخ إبراهيم الباهلي الذي سمع دعاء الأمي فزجره.

(٢) بل زجره الشيخ إبراهيم وقال : أي شيء في بطنك تنذره؟!.

شاعر نبطي تلين قصائده عاتي الجبال، وترقص ربات الحجال، وحسبهم أبيات من تلك القصيدة التي سندتها على صديقك راشد الحمدان عندما أردت السفر إلى عزبة أبي صير في مصر المحروسة في غابر السنين التي جاءت فيها أبيات فيها لوعة ابن لعبون، وهيام محسن، والتي قلت فيها:

ما طردت الغي في عز الشباب
مير ادعج العينين ضيع لي قداية[1]
زامي الردفين مفلوج العذاب
وإن ضحك لي بالمودة واهنايه
وطول الصدة وليفي واعذابي
وعجل الردة فهو غاية منايه

إلى آخر هذه القصيدة التي تقطر رقة وتذوب شفافية.

وآه منكم أيها الظاهريون كم هي قلوبكم رقيقة، وأشعاركم للقلوب مذيبة، ولكنكم ـ مع هذا، وعلى طريقة شيخكم ابن حزم ـ فيكم عند الصدع بالحق قوة، وعند رؤية الباطل جولة وصولة، وكأن شاعرنا العربي يعنيكم ويعنينا معكم عندما قال في بيت جمع فيه ما بين رقة العاشق وقوة الفارس:

نحن قوم تذيبنا الأعين النجل
غير أنا نذيب الحديدا

والله ما كذب ـ والذي نفس هذا الكويتب بيده ـ ورغم كل ذلك أيها الظاهري فإن رقة القلب هذه قد تحولت لديك من خيالات في الشعر

---

(١) البيت منكسر لزيادة «مير» إذ يستقيم بدونها، ولا أدري كيف وقع هذا الخلل.
وكثيراً ما ينظم الشاعر قصيدته ملحنة مستقيمة، ثم يسجلها فينسى الكلمة التي غنى بها القصيدة فيحدث الخلل في الوزن.

والهيام إلى رقة تسكن جوانحك وأنت تصلي في جنح الليل والناس نيام، بعد أن أصبح قلبك معلقاً بخشوع المساجد بعد أن كان مولعاً برقيق القصائد.

قال أبو عبدالله القاضي: ولو لم يكن من أمر تلك الوريقة التي أغضبتك إلا أن ظفرنا بمقالتك الشائقة قرار الفصل.. التي هي أقرب إلى الشعر منها إلى النثر، والتي كتبتها بأسلوب هو أدنى إلى هديل الحمام بعد أن أمسكت بطوقه ودثرت قلمك بتغريده.

وثاني عوائد هذه الوريقة أنها حققت الهدف، فقد وعدت قراءك بالعودة إليهم في عام قابل وإن كنا وهم لا نستطيع على الصبر عن تباريحك كل هذا الزمان، ولكن إن أصررت فما لنا إلا الصبر حتى ولو تجرعنا الصبر، وستبقى الزاوية ملكك كما قلت في مقالتك، فقد أحييتها إحياء شرعيًا وعرف القاصي والداني حدودها.

ونحن معك في هذا لكن عسى ألا تتدخل وزارة الزراعة في الأمر حيث أنها عندما تمنح إنساناً أرضاً زراعية ثم لا يحييها صاحبها أو يحييها ثم يهجرها فإنها ـ كما نسمع ـ تأخذها منه وتمنحها لغيره.

ولكن اطمئن فنحن بالمجلة العربية لن نفعلها، فمن لنا نحن غير أبي عبدالرحمن، ومن لنا بتباريح غير تباريحه برَّح الله عنا وعنه كل مكروه.

وأخيراً نقول كما يقول الأب عن ابنته عندما يخطبها كفء: ما غذيناها إلا لك.

وبعد: نراك بعد هذه المقالة الاعتذارية النابغية قد رضيت.

ذلك ما كنا نبغي، فلقد أردنا بهذه المقالة ذات الأسلوب الظاهري أن نستل سخيمة غضبك، ونظفر بصادق عفوك، ونحظى بعاجل أوبتك.

القصيبي وقصيدة التباريح

. . وتألم الدكتور غازي القصيبي من قرار الفصل، فكتب قصيدة السناكيح، وهي عصماء رنانة من عصماوات الفن الحلمنتيشي الذي يكتبه الشاعر أحمد قنديل رحمه الله .

قال معالي الدكتور غازي :

يا ابن القضاة الميامين الجحاجيح
من كل شهم كريم الأصل ممدوح
أمـا رفقـت بشيـخ شـاعـر فطـن
جـم المـواهـب ذي ديـن وتـسبيـح
يغـوص مـن كـل بحـر في قـرارتـه
حتـى لتحسـده كـل التمـاسيـح
إن رمـت فقهـاً فـإن الفقـه صنعتـه
يجلـو المحلى بتفسير وتـوضيـح
أو رمـت شعـراً فـذا ديـوانـه حـرق
يدمي بدمع من الأعماق مسفوح
أو رمـت نثـراً أتـاك النثـر تحسبـه
من رقة النسج نفح البان والشيح
أو رمـت درسـاً تـراه في تـلامـذة
إليـه قـد جلسـوا بعـد التراويـح
فكيـف يـا أيهـا القـاضي يبـاغتنـا
هـذا القـرار بـإلغـاء التبـاريـح؟!

إن التباريح للقراء فاكهة
تجلو عناء كتابات السناكيح
فيالها شذراً استودعت عبراً
مملوءة صوراً توحي بما توحي
ويالها نتفاً ريانة ترفاً
مضيئة شرفاً مثل المصابيح
من ذكريات شباب بعضها مرح
وبعضها نابع من وجد مجروح
فيها الفكاهة أخت الجد ما افترقا
ومن يفرق بين الجسم والروح؟
وقلت قد ضقت ذرعاً من مطاردة
للشيخ ما بين تلك الدور والسوح
أما علمت حماك الله أن له
عذراً ويكفيك تعريض كتصريح
زغب الحواصل والدنيا وسلسلة
من الهموم انفراطاً كالمسابيح
تبغي الكتابة في ميعادها عجلاً
إن الكتابة أنثى ذات تبريح
لها مزاج غريب في تقلبه
فهل رأيت مزاج النار والريح؟
جميلة تتأبى حين تطلبها
فؤادها القفل مسلوب المفاتيح
وحين تهجرها تأتيك طائعة
تمشي بشوق ولم تَفضح بتفضيح

يا ابن القضاة رجاء من أخي مقة
يـزجـى إليـك ومـن أولى بتنجيـح؟
أعـــد إلينـــا تبـــاريحـــاً نسر بهـــا
فـــربمـــا سر صـــب بـــالتبـــاريـــح!

وساهم الأستاذ سعد العوفي بقصيدة قدم لها بقوله: على أثر إعلام المجلة العربية الغراء قراءها عن توقف فضيلة الشيخ أبي عبدالرحمن الظاهري عن مواصلة نشر تباريحه الماتعة يسعد كاتب هذه الأبيات أن يتقدم إلى فضيلة الشيخ بها شارحاً أحاسيسه للشيخ الجليل، آملاً من فضيلته استئناف نشر تلك التباريح:

أيلغـــي فـــؤاد تبـــاريحـــه؟
وكيـف وفي كـل عضـو نـدوب؟!
تـوارت ولم تـرحـل الـذكـريـات
(م) فتسكـــن آنـــاً وآنـــاً تثـــوب
كفـــاهـــا ادكـــارك شرخ الشبـــاب
(م)ولا مثل ذكرى اشتعال المشيب!
وخلعـك بـالكـره ثـوب الصبـا
وإن سر ثـوب الـوقـار القشيـب
وعيـش تـولى كـريـم الـرؤى
بـرغـم الخصـاصـة غضًّـا رطيـب
تمنيـــت لـــو أن أيـــامـــه
تـؤوب وهيهـات يـومـاً تـؤوب
أقـــامـــت لـــديـــك تجـــاريبـــه
بهـــا عبر قـــد تفيـــد الأريـــب

وعظـــت الشبـــاب ببرحـــائهـــا
وقـد خـدعـوا بـالجنـاب الخصيـب
وعـــــرفتهـــــم دون أن يفطنـــــوا
إلى واقـــع مـــرٍّ صعـــبٍ جـــديـــب
وقـــد كـــابـــد الحـــر حتـــى ارتقـــى
ولم يثـــن منـــه ازدحـــام الخطـــوب
وأفهمتهـــم عـــن طـــريـــق الكفـــاح
(م) دروســـاً منفـــذهـــا لا يخيـــب
كـــذاك إذا مـــا عشقـــت الـــذرى
وكـــافحـــت لأواءهـــا تستجيـــب
أعـــده فـــإن لم يعـــد عـــاجـــلاً
هجـــرت المجلـــة حتـــى يـــؤوب!!

قال أبو عبدالرحمن: ومنحت القصيبي شيئاً من تباريحي لأنه كتلة مواهب، وذو دين وخلق مهضوم.

أما المواهب فقد عبر أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى بمرارة عن غيظه إذا تحدث الناس بما يجهله هو[1].

قال أبو عبدالرحمن: وأنا أشد غيظاً منه بالنسبة لأناس شرقوا وغربوا فجاءوا يحذقون مع لغتهم لغة أجنبيه ثانية.

وكاد الحسد يدب إلى قلبي تجاه دكاترة غادروني وعادوا بلغات إنجليزية أو فرنسية من أمثال محمد الهدلق، وعبدالعزيز المانع، وفهد العرابي الحارثي.

---

(١) مداواة النفوس/ ضمن رسائل ابن حزم.

وكان قلبي لا يعرف الحسد . . فلعل ذلك من التنافس في العلم .

ونعيت نفسي أمام آخرين يطلون على معارف البشرية وعلوم الدنيا من لغات شتى كالدكتور الأستاذ حسن ظاظا ، والأستاذ عابد خزندار .

وعندما تألق الدكتور غازي القصيبي أدبيًّا وفكريًّا في رياضنا ـ وهو متألق في غفلة منا فيما وراء البحار . ـ قلت : عوضي في التنافس على معارف الخواجات أنني أبزه بتراثيتي ! !

وأما الجانب الآخر فأشاركه من خلال الكتب المترجمة في الإشراف على أدب وفكر الخواجات وإن كانت له ميزة الإشراف على ما لم يترجم من الأصول .

وفي الجلسة التاريخية بالنسبة إليَّ منذ ثمانية أشهر[1] في مكتب رئيس كتبة المجلة العربية المكونة منه ومن الأستاذ عبدالله القرعاوي ومن معاليه ومني أحبطت كثيراً وأنا أجد غازياً يقول بلسان الحال في كل لحظة : إن بني عمك فيهم رماح ! .

يقول ذلك كلما عرجنا على ابن حزم أو ابن تيمية أو مصطلح الحديث أو مسائل العقيدة .

وأقول اليوم : يظلم غازياً من لا يعتبره ذا علم مكين في الشريعة وثقافات التراث .

ويظلم غازياً من لا يتحرى الجانب الروحي الصادق في أدبه وفكره .

وأما سيرته فليحاسبه المختصون به أشد الحساب ، فلن يجدوه أقلَّ من أي عبد لله مقصر لا ينسك نسكاً أعجميًّا ! .

وأبو محمد ابن حزم أعلن عن نفسه ذلك ، ونفى في طوق الحمامة أن

---

(١) قلت ذلك في شهر جمادى الأول سنة ١٤١٣هـ .

يقول بالمراءاة، أو النسك الأعجمي[١] والمهم عنده في أعين الناس أن يؤدي الواجبات، وأن يترك المحرمات الموبقات، وألا ينسى بقدر الاستطاعة الفضل بينه وبين الناس.

قال أبو عبدالرحمن: وكنت عنيت بشعر غازي، فمن عنايتي ضميمة نشرت بكتابي ديوان الشعر السعودي المعاصر، ومنها مالايزال حبيس الأضابير.

وقد بعدت ذاكرتي عن معهود شعره لأتقصى الجانب الروحي والجانب الإنساني الشفاف في شعره، وإنما ألتقط من الطرس على عجل شواهد على ذلك.

وأما الجانب المهضوم فكل من عرف غازياً سيعلم أن شعره شاهد سيرة، وأنه لم يتحل بحلي مستعار، ولم يلبس ثوب زور.

خذ من الجانب الإنساني الشفاف مثلاً قوله في قصيدة الشعراء يخاطب العاديين:

ترون الجمال احمرار الخدود
وسحر المراشف من غاتية
ونلمحه في وجوم العيون
وفي ذلة النظرة الباكية
وفي الليل ينشر أطيافه
على مضجع القرية الغافية

... إلخ.. إلخ.

ومثل ذلك في قصيدة وحبنا الشعر وكأنه يرسم رسالة الشعر وإنسانيته:

---

(١) طوق الحمامة/ ضمن رسائل ابن حزم.

المجد أن يهزم الإنسان طينته
فلا حروب ولا ذعر ولا فرق
المجد ألا يضم الليل جائعة
المجد ألا تغطي طفلة خرق

وفيها هذا البيت الطيار بمعنيين يتيمين:

وحبنا الأفق لا تفنى كواكبه
وحبنا البحر لا يجتاحه غرق

ومثل ذلك قصيدته عالم الإنسان التي مطلعها:

أريده عالماً لا يستبيح دماً
ولا ينقل في أوزاره القدما

وأما الجانب الروحي فأشهد أن قصيدته فارس القدس شاهد على صلابة موقف في ذات الله، لأنها في رثاء الملك فيصل رحمه الله، ولا يتحسر على بطل التضامن الإسلامي إلا من أحب التضامن، ولأنه أجاد فيها، والإجادة بشير الصدق المدلول عليه بصدق الانفعال.

وفيها يقول عن نور النبوة في الجزيرة (وفيه البرهان على أن الجزيرة عرفت النور بالرسالات السماوية):

منجم للرجال أرض بلاد
في ثراها تنزّل القرآن
شع منها الهدى فأشرقت الأرض
حبوراً ومادت الأوثان

وما أملح هذا الرسم الفوتوغرافي للملك فيصل رحمه الله:

خطـوات الغضـون فـوق محيـاك
حـروب وقـودهـا الشجعـان

ولولا الإطالة لسجعت وأمتعت بقصيدته خمسون التي فيها مثل هذا البث :

خمسون . . تحمل جرح الناس يا رجلا
جراحه من عذاب الكون ترتضع

وفيها مثل هذا الابتهال :

يـا رب في نصـف قـرن مـا يـرد بـه
رشـد الغـوي ومـا يهـدي ومـا يـزع
يـا رب ويلي مـن يـوم جمعـت لـه
شتى الذنوب ويلقى الناس ما جمعوا

وغازي يعلن عن هويته في قصيدة لا تهيء كفني :

أنـا إسـلامـي أنـا عـزتـه
أنـا خيـل الله نحـو النصر تعـدو
أنـا تـاريخـي ألا تعـرفـه؟
خـالـد ينبـض في روحـي وسعـد

ولعل متذكرين يذكرون قصيدته التي قالها عام ١٣٩٥هـ :

رب إني عبـد ضعيـف ضعيـف
حشـد النـاس حولـه مـا يخيـف

إلى أن يقول :

واجعـل الحـق بغيتـي لا تكلنـي
لـوجـود أسـاسـه التـزييـف

تباريح حياتية

الأستاذ العنقري وتباريح الحرفة

ومن التباريح ما كان من أعباء الحرفة المرتبطة بالفن. . أي الرقابة الدينية على الأفلام والمسلسلات الفنية، وقد توقفت عن هذه الحرفة خلال قيام الأستاذ إبراهيم العنقري بوزارة الإعلام.

وأول ما تعين معالي الأستاذ إبراهيم وزيراً لوزارة الشؤون البلدية والقروية زرته مسلِّماً عليه مع بعض زملائي بالوزارة، فزادني حفظه الله حفاوة، وتساءل ـ لما علم أنني من موظفي الوزارة ـ تساؤل استغراب: ما الذي جاء بي إلى هاهنا؟.

فقلت له بلهجة عامية: بل أنت وش اللي جابك هنا؟!.

الله يكفيني شر الثالثة!!.

فتساءل عن الثنتين فذكرت له قصة بُعدي عن النادي الأدبي الذي جعلته بسببه.

وذكرت له بُعدي عن مراقبة التلفاز الذي جعلته بسببه أيضاً.

وكان مكتب معاليه حافلاً بالزوار والمهنئين، ولم يحاول حفظه الله تكذيبي أو تأييدي، بل التفت على الحاضرين مبتسماً وقال: إن أبا عبدالرحمن يظلمني!!.

ثم التفت إليَّ وضمن لي أن لا تأتيني الثالثة وبشرني بكل خير.

وما رأيت منه والله بعدها إلا كرم الرعاية وجلال الأبوة. . بل نفضني من رف النسيان.

وأما قصة التلفاز فقد عينني الأستاذ عبدالرحمن الشيباني ذكره الله

بالخير مراقباً على ما سيبث قبل بثه من المسلسلات والأفلام والمسرحيات والأغاني. . وكان ذلك أول ما نشأ التلفاز بالمملكة.

وكنت أستلم الأشرطة في عهدتي لا يراها أحد حتى يتقرر مصيرها بالإذن ببثها، أو بترجيعها لمؤسستها، أو بمحوها، أو ببقائها ضمن الممنوعات.

وكنت ـ ولا أزكي نفسي على الله ـ يقظ الضمير لا أبيح للجماهير ما يقشعر منه جلدي إذا رأيته.

وكنت أتتبع الشريط بالحذف فأوصي بمحو غمزة عين، أو قسم بالنبي صلى الله عليه وسلم، أو كلام ذي عربدة فنية، أو صورة قَنِّينة على الماصة.

فإذا كثر المحو كثرة تذهب الغرض من الشريط في جملته أوصيت بمنعه.

وظلت الحال هكذا، وظل الطرب والدبكة لا يبثان إلا في أيام الأعياد.

وتطورت سياسة التلفاز في البث بعد ذلك، وعظمت مسؤوليتي في الرقابة إلى حد الوسوسة، وأرهقت نفسي بالسهر.

ثم تعين الأستاذ إبراهيم العنقري وزيراً للإعلام في أوساط عهد الملك فيصل رحمه الله.

وكان معاليه قبل ذلك وكيلاً لوزارة الداخلية، وكان عسكريًّا مهيباً. . بل مروعاً!!.

ولكنه منذ وزارة الإعلام تأنس لمحبيه وجمهور وزارته، وأبان عن لطفه وحنوه، وهكذا من كانت أيسر معارفه الأدب لابد أن يروضه الأدب.

وكان للمراقب دريهمات على قدر الساعة وهي المقدار الزمني للمادة

المراقبة، وربما أخذت الساعة معي سويعات ما بين مشاهدة وتأمل وتقديم وتأخير.

وفي ذات يوم بعد صلاة الجمعة طرأ علي أن أقضي الظهر في المراقبة لعدة أمور:

أولها: أن مكيفات الصحراوي ـ فضلاً عن الفريون ـ لم تعم جميع البيوت، وإنما كانت هناك مريوحات.

وكان مكتبي بالتلفاز مكيفاً تكييفاً ممتعاً بين جدران زجاجية، فقلت في نفسي أستمتع بالتكييف عوضاً عن سموم المريوحة.

وثانيها: أن أستمتع بالمادة التي أراقبها.

وثالثها: أنني في بويت بالأجرة، وفي ضائقة مالية، فقلت في نفسي: أراقب عدداً من الأشرطة فأحصل على مكافأة مجزية حيث أكثف العمل في الشهر فأسدد القسط الحالي من الأجرة.

وصادف الحظ أن وجدت شريطاً واحداً للمراقبة فوسعت الصدر على مشاهدته، وأعددت التقرير عنه على راحة، فرأيت أن أقضي بقية الوقت بمشاهدة أشرطة سبق لي أن راقبتها للمتعة وليس للتحصيل المالي، وصادف أن كان الشريط فيلم «الشموع السوداء» وكنت عند مقطع «عليادي عليادي» وكانت أذناي مشغولتين بالسماعتين لا أسمع طارقاً، وكنت في غواية شباب ومراهقة أضرب بأصبعي مجاوبة للنغم.

ففوجئت بمعالي الشيخ إبراهيم العنقري أمامي منفعلاً ينفض يديه، وأنا أنظر حركاته وسحناته ولا أسمع ما يقول، وأذكر أنه كان بمشلح رهيف بين الأبيض والأصفر، ولم يخطر ببالي قط أنه سيداوم يوم جمعة بعد الظهر، وما خطر ببالي أن يكون دوامه في التلفاز.

وكان معه الأستاذ فوزان، وكان فوزان يربِّت على كتفي، فقفلت الفديو وفسخت السماعتين، فطن في أذني من كلام معاليه قوله: ما صار هذا ولا في فرنسا.

وتساءلت ما الخبر؟.

فوجه معاليه الأستاذ فوزان بأن يريني الخبر عياناً لا سماعاً، ثم قال: لن أخرج من المكتب حتى تحققوا لي من أجازه؟.

وكان الخبر أن ممثلة دخلت في الكوافير فحملها الرجل وهي شبه عارية وقبلها، وكان ذلك في مسلسل «اسألوا الأستاذ شحاده».

وقد نزل جزء من هذا المشهد على حد دخول معاليه للتلفاز أو أنه حضر لأجل نزوله.. لا أحقق ذلك، فارتج التلفاز وصار كله حركة وضجيجاً، وفي أقل من الثواني قطع المشهد ونزلت مشاهد عن كرا وخط الحجاز وبعض المشاهد.

وتساءل: من أجازه؟.. فقيل: أبو عبدالرحمن!!.

فقلت لمعاليه قبل ذهابه إلى مكتبه وقبل مطالعة المشهد: نعم، أنا طالعت هذا المسلسل، ولكن بعيد جدًّا أن أجيز مثل هذا، وأن أسمح ببث هذا الخلق المتدني تشاهده أختي وأخي فضلاً عن أبناء الآخرين.

وكان غلاف كل شريط يلصق عليه وريقة على هذا الشكل [   ] فأكتب عليها إحدى عبارتين:

١ ـ مجاز.
٢ ـ أو غير مجاز.

فوجدت ورقة الشريط بنصف حجم الورقة هكذا [   ] ليس في

جهتها اليمنى تلك الشريفات، ومكتوب عليها مجازة، وقبل الميم نقيطة كذرق الذباب علمت أنها ما بقي من كلمة «غير» التي نزعت بالمسطرة والموس.

فأخبرت الأستاذ فوزان بهذه الظاهرة فاقتنع نصف اقتناع بأنني لم أجزه، ولكنه أصر على وجود التقرير، فتم البحث عنه بدقة فوجد بخط يدي أعددته منذ أزيد من سنة، ووجدت أنني لم أجزه، وأنني عللت رفضه بعلل منها منظر الممثلة المذكورة في الكوافير.

فذهبت بالتقرير فرحاً إلى معاليه فأمر بالتحقيق مع من نزل المشهد، وأوصى الأستاذ فوزان بقوله: فرملوا بأبي عبدالرحمن، فتعينّ معي الدكتور عثمان الصوينع مراقباً.

واتضح أن الشريط أنزله خطأ من يظنه من شريط آخر يتضمن مقطوعات تونسية، ووجه الخطأ أن شريط المقطوعات في جراب اسألوا الأستاذ شحادة، وشريط شحادة في جراب المقطوعات.

ولما وقع في الورطة خانته الشجاعة ـ أو هيبة الأستاذ العنقري الرجل العسكري الذي جاء إلى الإعلام ـ فلم يعترف بالخطأ، بل زور على غلاف الشريط لأكون الضحية.

ولم أتابع الأمر بعد ذلك لأن ما يهمني براءتي وقد بانت، ولا يهمني إدانة غيري.

وارتبط بالذاكرة أن كل شريط لوحظ عليه فإن مجيزه ابن عقيل، وقد كثرت الملاحظات يومها من سماحة الشيخ ابن حميد، والدكتور صالح العلي الناصر وغيرهما.

ودار العراك حول خروج الصحابة في التمثيل، وقد خرج نوبي كريه

المنظر يمثل دور بلال رضي الله عنه .

وكان نصف وقتي أقضيه في إعداد خطابات وتقريرات دفاعاً عن نفسي إما نافياً دعوى أنني مجيز ذلك الشريط ، وإما مدافعاً عن وجهة نظري في إجازته ، وكان الأمر الأول أكثر ، ومع هذا فأصابع الاتهام تتجه إليَّ دائماً .

يضاف إلى ذلك تقليص المكافأة ، وتقليص سويعات العمل ، وفي كل فترة ألاحظ قادماً يمر على المراقبة .

فاضطررت إلى تقديم استقالتي بجفاء فقبلها معاليه بكل ترحيب ، كما قبلها وأنا رئيس النادي الأدبي بالرياض وكان قائماً بعمل صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز إضافة إلى عمله وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .

لهذا خفت من شر الثالثة ، ولكنني لم ألق منه بعدها إلا الخير كله .

وماذا عن تباريح الحرف؟

وهاهنا تباريح عن زملائي صعاليك الحرف، وبعض أساتذة الجيل في البلد، وهم أقدم من أخذ الدكتواره من خارج البلاد العربية، وعن دكاترة تلوهم بأجيال وهم ما بين صديق في الرياض أو زميل في شقراء وصديق في الرياض. . وعن تأفُّفٍ من كاف التشبيه!!.

منهم العرابي وهو الدكتور فهد الحارثي الشهير، وهو مثير شجون من وصف هاهنا بالقروي، وهو أبو عبدالرحمن.

وقد أثار هذه الشجون خبر قرأته في جريدة الرياض[1] يقول: «الدكتور فهد الحارثي يستقيل من عمله كرئيس [؟؟!] لتحرير مجلة اليمامة».

قال أبو عبدالرحمن: فأحسست أن شيئاً ضاع مني، لأن العرابي قفز باليمامة أحقاباً بما يملكه من ثقافة ولغة وقوة شخصية، فكانت مدينة لإهابه العرابي، وجمجمته التي صفقتها أنسام وأنداء باريس. . فإن كان في سبيله إلى ما هو أعلى من رئيس كتبة اليمامة فلا نكره ذلك، وذلك عزاؤنا إذ نفقده صحفيًا لامعاً.

وقفزت ذاكرتي إلى ذكريات مع العرابي قبل أن يكون خريج سربون طه حسين، وكنا متجاورين في شويرع يتفرع عن أم سليم قرب بيتي شلهوب وابن خميس في حدود عام ١٣٨٥هـ.

وكان بويتي ـ وهو بويت طين في قاعة ردب ـ وكان مأوى لصعاليك حرفة مثلي لا يملكون داراً ولا عقاراً، وكنا ضيعة لا نملك ضيعة، ولا هم لنا إلا ما قاله الخيام، أو ناجي، أو ضعيف البخت الشناوي صاحب:

---

(١) عدد ٩٠١٧ في ٩/٩/١٤١٣هـ.

لا تكذبي!!.

وربما حل علينا بعض الأويقات زائراً أمثال الشيخ أبي تراب، أو الدكتور فوزي البشبيشي أستاذ العرابي.

وكان ذلك البويت مباركاً ننعم بسطحه في ليالي الصيف الخانقة، وبذلك السطح سجلت من الراديو سهرات أدبية ماتعة بصوت الجواهري أو مصطفى جمال الدين، أو نزار قباني، أو نازك، أو حسين بستانة مع برامج سياسية وفنية.

وكنا لا نملك سيارات للتنقل، ونشح بأجور النقل لشراء كتاب أو دويوين كليالي القاهرة!.

وكنا نشتري الكتب ونغلفها بأكياس النايلو التي تستعمل الآن لحفظ اللحم في الثلاجات، فنغادر المكتبة إلى بيوتنا مشياً على الأقدام، وتسمع لنعال بعضنا إيقاعاً كبحر الخبب، لأنه من النوع الرخيص الذي يسمى «زنوبة» له تصفيق في باطن الرجل.. وأكياسنا في آباطنا!!.

وكان فهد لا يشاركنا إلا قليلاً بمقدار ما يلزم من حقوق المجورة، وكان مشغولاً بدراسته في كلية التربية.

وقبيل المجورة كان يكن لي تقديراً علميًا رغم أنه لم يجد عندي الجواب الذي يرضي عقله اللحوح، فقد كنا مرة في نزهة على طريق خريص فيما أظن، وربما كان صاحب الدعوة الأستاذ محمد العجيان المسؤول عن جريدة الرياض يومها فسألني العرابي عن الفرق بين «مستفعلن» و«مستفع لن» فلم أجد شجاعة الإمام مالك في قول: لا أدري.. فصرت أتمحل الجواب وأتصبب عرقاً، فازور العرابي بأدب ازورار من لم يقنع بالجواب ولا يريد أن يرد علي.

وربما نسي العرابي هذا الموقف، أما أنا فلا أنساه لأنه كان محرجاً.

ولم يخلق هذا الموقف جدتي العلمية عنده.

وفي آخر دراسته كنت أتحسر على فراقه لنا، ولكنه هز يدي بعنف يقول لي عن شهادة السربون المنتظرة: «إنها دكتوراة واملأ فمك».. ويكررها مراراً.

وغاب العرابي في بلاد العلوج والثلوج، ولقيته في إجازته بالرياض ثلاث مرات تقريباً، فما رأيت استقبالاً حارًّا يحف به ذلك الإعجاب الذي عشت دلاله قبل رحلته الباريسية، وإنما هو استقبال عطف على قروي يتبرد تحت سور القرية وقد تجاوزه العصر!.

وفي إحدي هذه المرات لقيني بمكتب الأستاذ محمد الشدي وأنا أفرع حقول الفنون الجميلة، فاعترض بأن الحقل الفلاني ـ وأظنه الفن التشكيلي أو النص الأدبي ـ لا يعتبر الآن من الفنون الجميلة.

وألححت على عده فنًّا جميلاً وإن غلب فيه العنصر الفكري، لأن منشأه من معيار جمالي.

ولم يدخل معي في محاورة غير تأكيده القول بأنه الآن لا يعد فنًّا جميلاً.

فانكسر خاطري، وقلت في نفسي: حسبي الله على باريس وسنتريس والسربون وأركون.. فكل أولئك صرفوا العرابي عن محاورتي!.

وكثرت مناسبات الحارثي في بيته العامر، وكنت أسمع أصداءها، لم يدعني مرة واحدة، وإنما دلفت إليه مرة ضيفاً مع ثلة من الزملاء، فلقيت كل ترحيب!.

قال أبو عبدالرحمن: وهممت أن أطير إلى باريس سنتين، وإلى لندن عند

لدكتور القصيبي سنتين، وإلى ألمانيا أو أسبانيا سنتين لأتعلم رطانة علوج فأكسر حاجز اللغة فلا يترفع عليَّ ذوو الرطانة، ولا يقولون لي: صف الاثنين كم؟!.

وإنما منعني من ذلك الطيران رعية كثيرة ضخمة لا يقوم بزمام الملك يها سوى رجل جهبذ جلد مثلي مع أعباء ثقيلة لا تسمح بسفري ولو لأيام، وأنى لي أن أطير بجميع أفراد مملكتي في بلاد أوربا؟!.

ومنعني من ذلك الطيران أن من أظنهم مترفعين على القروي كالعرابي و الهدلق أو المانع.. كلهم أبرياء في هذه الدعوى، وكلهم أسوة الدكاترة لرواد من أمثال الدكتور عبدالعزيز الخويطر، وعبدالله الوهيبي، وأحمد لضبيب، وعبدالرحمن الأنصاري، فهؤلاء أكثر مني قروية.

إن العرابي وزملاءه لا يشعرون بما بهتهم به، وإنما هو البعد.. والبعد جفاء.

ومن هؤلاء الدكتور عبدالله الغذامي أردت أن يسلس قياده بمر العتاب، فأقسم لي أنه قبل سفره للدراسة في الخارج كانت أمنيته أن يرى أبا عبدالرحمن الظاهري.

فكان حظه سعيداً وأتيحت له زيارة الظاهري صحبة نسيبه الأستاذ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الحميدي، إلا أن الظاهري كان مغروراً فلم أرمقه بربع عيني.

فانكسر خاطره، ولاتزال عبرته حائرة إلى هذا العام عام ١٤١٣هـ؟!.

قال أبو عبدالرحمن: فأقسمت له أن هذا لا يكون مني أبداً، وإنما ذلك توهم.

ومن ثم أيضاً حكمت على نفسي أنني ظلمت بعض دكاترة الجيل بالتوهم.

قال أبو عبدالرحمن: والعرابي كان رئيس تحرير، ولم يكن شبه رئيس تحرير.

فما بال بعض الكتاب يصر على كاف التشبيه في غير موضعها، وما بال مصححي الجرائد لا يتداركون الأمر إذا سها الكتاب؟!.

يقول بعضهم: نحن كمسلمين.. فهذا لحن شنيع.

وفي جريدة الجزيرة[1]: «اقبلونا كمدرسين».

يريد: اقبلونا مدرسين!!.

وفي الجزيرة[2] يقول ضيف الجزيرة: «بدأت حياتي كخوي».

وما ينشر في غير الجزيرة أكثر وأكثر!!.

وربما قال قائلهم عن أم أولاده: هذه شريكة حياتي كزوجة!!.

---

(١) عدد ٧٤٦١ في ١٠/٩/١٤١٣هـ ص ٣١.

(٢) عدد ٧٤٥٦ في ٥/٩/١٤١٣هـ ص ٥.

تباريح القرناء

قال أبو عبدالرحمن: وكثر قرنائي، وكثر اقتدائي بالقرناء على اختلاف مشاربهم، وكل قرين بالمقارن يقتدي.

تلك تجربة من الحقائق العتيقة، والتجارب المشتركة الماثلة خطرت على لسان شاعر قديم فرددها السلف كثيراً جيلاً بعد جيل، وكاد يخفت ألقها لدى الخلف، لأنهم مغرمون بالجديد ولكل جديد لذة.

والملل من القديم يكاد ينسي حقائق كثيرة.

ولم أع صدق هذا المثل إلا بعد عقد من العمر وزيادة، وكنت في تلك الفترة استبدلت جيراناً بجيران، وأتراباً بأتراب ذوي شِبْه أريحية وبراءة.. نهارهم في دجنة، وليلهم جهوري يعانق في مجالسهم النؤاسي الخياما، وإن لم يحبوا أحبوا من يحب.. ألذ ما عندهم سمر العشاق والمشغولين بغير شغل.. يخط مئزر أحدهم فلا يجر ذيوله إلى فوق.. وملتقى اللحيين عنده كالعرجون الضاحي.. عبادتهم نزر، وغوايتهم غمر.. لا يعلمون أي ميزة ليوم الاثنين، أو الخميس، أو آخر ساعة من يوم الجمعة، أو ثلث الليل الآخر، ويكادون يفتقدون القشعريرة التي تُستمطر بها بركات السماء.

قبيل العيدين يعقدون الجلسات غير المباركات عن معاقد العزم في شد الرحال في إجازة العيدين: أتشد إلى أسمرا بالحبشة، أم إلى شيراز بإيران، أم إلى أرض الكنانة؟!.

ثم ترقَّت الأحوال فذكروا كازابلنكا، واليونان، وأسبانيا!!.

يتحيف الموت كثيراً من شيوخ وكهول قرانا، وقليلاً من شبابنا فلا تجد

في ثلة العقد وزيادة من يحضر للصلاة على الميت، أو يشيعه إلى المقبرة ويرش على قبره ماء، أو يحثو عليه حثوة، أو يدعو عند رأسه له بالثبات.

فإن كان شابًّا أنيقاً مهذباً يتكلم كلاماً متمديناً مرتباً زار أهل الميت بعد قيامه من النوم قبيل المغرب، ووقف عند بابهم ربع دقيقة وقال: البقية في حياتكم!!.

وموجز القول وقصاراه وحماداه وحصيلته أنك تستحي من القوم أن أردت التعبد الواجب، والترك الواجب ما دمت عشيرهم.. وتزداد عندهم حظوة إن لبست لهم ثوب الغواية أخضرا.

فاستوحشت من العقد وأهله منذ ثغم الشيب في فودي، وسحبت الرداء فيما بيني وبينهم رويداً رويداً لعلمي وتجربتي بأن القرين بالمقارن يقتدي، وأن قرين السوء بئس القدوة.

وكان أحد من ملأوا فراغ حياتي أبا محمد عبدالله بن عبدالكريم بن معجل أسبغ الله عليه رضوانه.

كان أحد ثلة خير مباركة بحول الله لا نكاد نفترق إلا لضرورات شؤون الأهل والنفس، وكنا أنضاء أسفار وسياحات، يطيب بيننا المعشر، ويحلو فيما بيننا السمر، وربما كثر اللغو من مباح القول في الدعابة والظرافة، فيلوم بعضنا بعضاً على مجلس ليست له كفارة.

أما الكلمة الفاحشة فلا توجد بيننا بفضل الله ورحمته، وكانت أعظم المتع في أيام العقد وزيادة.

وبالله ثم ببركتهم ذكروني أن لله من أيام دهري نفحات، وتحاشيت الغيبة رويداً رويداً وإن كانت بكلام غير جارح.

إنها سنوات مباركات أحدث فيها فقدي لأبي محمد ثلماً، فكانت

مصيبتي به تقرب من مصيبتي بوالدي، ومن مصيبتي بشيخي محمد بن داود رحم الله جميعهم.

ولكنه أبقى لي ميزات من سلوكه أكاد أترسهما مستقبلاً.

ومن أخص ميزاته البراءة والنقاء هكذا أحسبه والله حسيبه.

ومن ميزاته أنه لا يعرف الغضب والانفعال، ولا الصخب والشتائم.

وغاية انفعاله أن يحاجك أو يصمت أو يدعو لك بالتوفيق إن لم يجد للحجاج مجالاً.

وكان يتفقد خصائص صديقه بإلحاح ليصل ما انقطع بماله، أو جاهه، أو نصيحته.

كان عربيًّا صميماً خالصاً في نسبه وأخلاقه ومواهبه، إذ كان ذكي الذهن، سديد الحدس، زكي الفطرة، متفوقاً في تذوق الشعر العامي ونظمه وحفظه.

وكان مع هذا مادة خام نظيفة يتقبل النقش الحسن من جليسه، فتشبث بالعلم، وتفقه على كبر سنه، واقتنى الكتب، وقرأ وألَّف.

وعن أحكام دينه جمع بين القراءة والاستفتاء، وكانت قراآته عروبية خالصة.. يقرأ كتب الأنساب وقصص العرب ومحاوراتهم ومناظراتهم.

وما كان يعرف طريقاً إلى الخصومات والمرافعات بل يتفاداها بتنازلاته، ولهذا لم ينفِّس على مستأجر في دكان أو شقة بطلب إخراجه أو مضاعفة الأجر، بل له أجراء منذ سنوات عديدة تركهم على حالهم يسترزقون ربهم مع زيادة الأسعار وتقلب أحوال الناس.

وكان قوي الإيمان شديد اليقين أصابته العلة واستأصلوا طحاله وكان

على علم بحقيقة العلة الخطيرة، لأنه كان يحذق لغة الخواجات، فزاده ذلك صبراً واحتساباً.

وعاوده المرض بعد سنتين، وبعد شهر وأسبوع من تمرغه في حزن والدته التي لقيت ربها داعية له راضية عنه.

وقد أريت في المنام أن ضرساً كبيراً يقع من فمي، فكتمته حتى ودعنا أبو محمد بأجله بعد أويمات من الرؤيا، فعلمت أنه الرحى الكبيرة التي وقعت.

ثلج صدري بحمد الله كثرة المشيعين والداعين له.

رحمه الله رحمة الأبرار، وجمعنا به في دار كرامته ووالدينا وأحبابنا بعد عمر مديد يكسب عملاً صالحاً.

تباريح اجتماعية وثقافية

تباريح اجتماعية

قرأت وقفة مع الذات للأستاذ عبدالمحسن بن عبدالله الماضي فسبحت مع أولها عن نشأة الفتى على الموروث الاجتماعي سلوكاً وأفكاراً وتذكرت حملات رجال التنوير والعلمنة على المجتمعات المتدينة وتفتيتها بحيلتين :

أولاهما : إقناع كبار مفكري المتدينين بأنهم لا يملكون من الفكر إلا ما ورثوه من تقليد أعراف المجتمع وسلوكياته وأفكاره .

وأخراهما : إقناعهم بأن الشك هو الطريق إلى الفكر الصحيح والسلوك الصائب. . وهو شك توسلي يكون بداية لا نهاية . . ولكنهم برقاهم الإبليسية جعلوا الشك في النهاية عقيدة لا يوجد في فكر المتدين غيرها ! .

قال أبو عبدالرحمن : وقلت في نفسي أحاشي ابن عبدالله عبدالمحسن أن يهجس هذا الخاطر بباله عن إرث المجتمع .

وأبحرت في الوقفة فوجدت فيها مؤشرات مثل قوله : «إننا نلقن العداوة والبغضاء ، ويطلب منا أن نرثهما وأن نورثهما ، وأن نتعامل مع من اختلف معهم آباؤنا وأجدادنا بالطريقة نفسها التي تعاملوا هم بها» .

فعلمت أن ابن عبدالله الماضي العنزي لا يريد البناء الفكري للمجتمع ، وإنما يعني الأوشاب التي ترسبت في المجتمع القروي المسلم من سلوك جيل من العوام ينشأون في القرية من رجل واحد ، ثم بعد قرن إلى قرنين يتكاثرون إلى فروع وبطون وأسر ، فيقسمهم التفاخر بالآباء ، والتكالب على زعامة القرية والأسرة ، فتتسعر فيهم العداوة والبغضاء حتى تشمل الجار والصديق والحليف ، فمن لم يكن مع آل فلان فليس منا ! ! .

هكذا كان السلوك الاجتماعي في القرية النجدية في كل عصور الأمية.

أذكر أن الأستاذ سعد البواردي عانى ظاهرة الشحناء في القرية منذ أكثر من ثلاثين عاماً بمقالته المليحة «اتفقوا على أن لا يتفقوا»!.

واستهلها بقوله: اتفقوا ولو على حفنة من سماد.

وعايشت أصداء المقالة، وسمعت الهمس حولها: ما بين مؤيد، وما بين معارض، لأن المقالة بزعمه تشهير.

وأذكر من العادة في القرية شيئاً يسمونه التشرط أو التحلوي يوم العيد.. يلبس الطفل أثوابه الجديدة أو النظيفة ويقرع مع زملائه البيوت: اشرطوا لي، أو حلووني!![1].

والشرط حفنة من قريض (حمص) أو سبال (فول سوداني)، أو حلاوة ملبس أو خليط منهن، أو يبيس تمر، أو سهو (وهو قمح محموس) أو عملة نحاسية (بياز) ربع أو ثمن، أو بيضة صفراء مسلوقة في دلة القهوة، أو غتر مشجرة، أو طاقية، أو غترة حجازية صفراء مشجرة حريرية (كيتاية).. وهذا في النادر.. وربما أصحبوا ذلك بيوزاً، وهن بطائن قماش مخيطة لحمل الدلة وهي حارة.

فتفتح المرأة للأولاد، وتسألهم واحداً واحداً: من أنت ولده؟.

فتفتح لواحد، وتعتذر من آخر، وتطرد ثالثاً طرداً شنيعاً، وربما دفعته من الباب: والخيبة بك واللي أنت ولده!.

ولهذا يُعرَّف الولد بالبيوت التي يتحلوى منها.

ولا تسأل عن حال الطفل المطرود الذي يتقطع القلب من أجله!؟.

(١) الجعل شرط يشترطه الجاعل، ثم توسعوا في الاستعمال فجعلوا هدية العيد شرطاً وإن لم تكن عن شرط.

ولا تسأل عن العقد النفسية التي يرثها؟!.

ولا ذنب للطفل إلا العداوة التافهة بين الآباء.

فهذا ولد آل فلان الذين غزوا مع آل فلان ضدنا!.

وذاك ولد آل فلان الذين خطبنا بنتهم لولدنا فلم يزوجونا!.

والثالث ولد آل فلان الذين ضاربونا عند حشيش الروضة الفلانية أيام الربيع!.

والرابع كان صديق آل فلان يوم كانت إمارة القرية لهم.

والخامس من آل فلان جماعة الشاعر الفلاني الذي ما ترك أحداً إلا هجاه!.

والسادس كانت تكون عندهم الولائم فلا يدعوننا.

والسابع الذي تزوج منذ خمس سنوات فدعا الناس كلهم إلا آل فلان!!.

وهكذا وهكذا مما لا يحصيه العد من توافه العداوات التي يتوارثها المجتمع القروي بالتلقين، ويرسخها الأشياخ العوام والعجائز بمثل حكمهم في المجالس وأمثالهم السيارة: عدو أبوك وجدك لا يغرك لو صفا لك ساعة!!.

وابن عبدالله عبدالمحسن من طلائع المثقفين الذين يريدون تزكية الموروث الاجتماعي.

ولا ريب أن جيلنا جيل محو الأمية والسلوك البهيمي، ولكن الكارثة أن قام على أنقاض الجيل الأمي جيل مثقف بشحناء الأميين وعداواتهم!!.

ومع مباركتي لمعاناة عبدالمحسن أعود إلى القول: بأن كل فرد فله عقله الفطري، وعقله الاكتسابي.

فالعقل الفطري تصور وأحكام وبداهة وتمييز ولماحية.

والعقل الاكتسابي معارف يحصِّلها بمعاناته الفردية، وبتلقين البيت، والمربي والمدرسة، ثم المدرسة الكبيرة المجتمع!!.

وأفكار المجتمع، وأعرافه، وسلوكياته ضرورية لكي تكون تلقيناً، ولكي تكون رقابة تزع سلوك الأفراد.

والإسلام يبارك رقابة المجتمع، لأن علن المجتمع المسلم معصوم، ولأن الحياء وازع اجتماعي وهو مطلب ديني.

والموهوبون والعلماء وحدهم هم الذين يقوِّمون سلوك المجتمع بفكرهم وعلمهم.

والقادة إذا كانوا منفذين لتقويم القيادات العلمية والفكرية، بتوجيهاتهم، وصيحاتهم: هم الذين يقصرون سلوك المجتمع على الحق قصراً.

قال أبو عبدالرحمن: إذن لا يروعنا تقليد اجتماعي يورث.

وإنما يهمنا أن يكون الموروث مدروساً مقرراً من أهل العلم والفكر والتقوى بريئاً عن النزوات العاطفية المعتوهة الأمية.

قال أبو عبدالرحمن: وليس كل ذكريات القرية مؤذية، بل الحبور بذكرياتها هو الأكثر.

من ذكريات البلدة

والشيخ سليمان بن علي ـ من آل صالح من بني زيد ـ من أمتع ذكرياتي في البلدة.

وفي ظهر يوم الجمعة اكتظ المسجد الجامع بشقراء بالمصلين على الشيخ سليمان، وكان ذلك في ١٢/ ٣/ ١٤١٢هـ رحمه الله رحمة واسعة ونوَّر ضريحه.

وهكذا أخبرني من حضر أن المقبرة أحيطت من جهاتها لعظم محبته في القلوب.

قال أبو عبدالرحمن: وأشكو إلى الله أنني لم أعلم بوفاته إلا بعد أويمات، وإلا لكنت أولى بشد الرحل والصلاة عليه.

حدثني من علم بوفاته أنه أغمي عليه وقد أم بالمصلين صلاة العشاء مساء الخميس فختم له مصلياً.

وحدثني الوالد رحمه الله أن محمد بن مطر رحمه الله مات في مسجد الحسيني ساجداً.

وحدثت أن العابد الورع الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز الحصين سقط عند باب المسجد النبوي وقد خرج من المسجد مصلياً متلبثاً للعبادة.

رحم الله جميعهم.

قال أبو عبدالرحمن: أسأل الله من فضله ما أحلى حسن الخاتمة، وما أجلى شواهدها.

أناف الشيخ سليمان بن علي على تسعين عاماً قضى منها ستين عاماً إماماً حافظاً لكتاب الله تلاَّء له، وكان أول ذلك في قطر.

آخر مرة لقيته بكى واخضلت لحيته الطاهرة المكرمة بالدموع . . ذلك أنه كان إمام مسجدنا الحسيني، وهو مسجد كنا آل عقيل سدنته أباً عن جد .

وكانت جنتي في دنياي المتقلبة عقداً من العمر وزيادة قضيته في الصغر مصلياً مأموماً خلف الشيخ سليمان بن علي .

كان صوته أنسي في الأسواق المظلمة الموحشة حتى ارتبط بذاكرتي .

وخنقتني العبرة مراراً وأنا أقف بخرائب الحسيني ومسجده الروحاني عائداً بعد طول غيبة فأتذكر أشياخاً يستضاء بهم في الدجنة، ويستسقى بهم المطر كمحمد الصبي، وآل ناصر، وعبدالعزيز الصائغ، وخالي عمر، وإمام المسجد سليمان، وشقران .

ويخيل إلي أن أبواب مسجد الحسيني وأسطواناته ولوائح مسقاته كل ذلك يحادثني ويسائلني ويستودعني وأنا في لحيظة على جناح سفر .

سقياً ورعياً ما أجمل تلك العهود يوم كنا على الفطرة لم تلوثنا الفلسفة، وكنا على الكفاف لم يداخلنا غبار الربا ولم نتجشأ من البطنة .

يوم كان ما يحمله الظهر وما يحمل الرجل من اللباس والزينة لا يتجاوز عشرة ريالات .

إنه يخفق قلبي فأتذكر معاهد الأهل بأصقاب الحسيني فأترمض كالمتقلب على جمر الغضا .

كان صوت الشيخ سليمان جهوريًا خلاباً، وكان حسن الاختيار لما يقرأ في الصلاة الجهرية، ولجودة حفظه وكثرة اختياره لا تحس بالملل من تكراره لاختياره .

وكان عمره يومها فويق الخمسين، وكان يحاجيني بالنحو وبعض

المسائل، وكان يحب مطارحتي لأن المتعلق بالعلم من الصبية في القرية قلة.

وفي عام ١٤١٠هـ دلفت إلى مسجده في صلاة جهرية لأنعم بما حرمت من صوته العذب، بيد أن الشيخ ضعفت حباله الصوتية وضعف ذلك الألق.

علمت منه أنه يختم القرآن في كل يوم ونصف يوم مرة.

كان يتفقدنا لصلاة الفجر فيقول: عمر بن دحيم ـ يعني الوالد ـ؟!.

فيقول: نعم.

ثم يقول: عبدالله؟.

يعني أخي، فيقول: نعم.

ثم يقول: محمد؟.

يعنيني فأقول: نعم.

ومرة لا يتفقد والدي وإنما ينادي عبدالله بن عمر ومحمد بن عمر ولا يقول: آل عقيل.

ثم ينادي مباشرة جارينا عبدالله بن عمر ومحمد بن عمر ولا يميزهما بآل فاضل.

وربما كان في التداخل رحمة بعض المرات.

صلى أحد المبتدئين بالمأمومين صلاة جهرية فقرأ سورة البينة فأخطأ فيها مراراً كثيرة، فلما فرغ من صلاته صاح به المأمومون وعنفوه على قراءة تلك السورة، وقالوا له: هذه سورة لا يقرؤها إلا سليمان بن علي.

قال أبو عبدالرحمن: وذلك لفرط جودة حفظه رحمه الله.. لا أعلم

أحداً يضارعه في جودة حفظ الكتاب العزيز إلا أن يكون الشيخ صالح بن غصون أو سماحة الشيخ ابن باز رحمنا الله وإياهم جميعاً أحياء وأمواتاً.

وأيام الذكريات مع الشيخ سليمان لما كانت الكتب شحيحة، وكانت المادة المالية لاستجلابها قليلة، وكان تناول النسخ الخطية بعد ظهور الطباعة نادراً جدًّا، وكانت وسائل التصوير غير متوفرة.. لما كان كل ذلك كان للحصول على الكتاب طعم ولذة أيما لذة.

تباريح مكتبية

وأذكر أنه كان عندي بشقراء ـ ولم يطر شاربي بعد ـ دويليبان عرض الواحد منهما متر، وطوله دون طولي، وكان فيه أول وأفخر طبعة من فتح القدير للشوكاني ذات ورق أصفر يسر الناظرين، وأول طبعة من تاريخ ابن جرير، وأول طبعة من شرح الأعلم الشنتمري للمعلقات، فكانت تفرُّ مني الساعات الطوال بلا قراءة، وإنما كنت أقلِّب كل مجلد وأُقبِّله، وأمسح الكتب وأعيد ترتيبها.. ثم أصعد إلى مرقدي في السطح بين رباط ثاغيتين فأكثر قبل انتقال حمى مالطة إلى جزيرتنا، وأستمتع بلآلىء النجوم، وأطرب لنباح الكلاب ينساب من مكان بعيد.. من المسعري أو جميحة.

ثم يبدو لي فأنزل إلى الديوانية حيث المكتبة (الدولابان)، وأوقد سراج أبو دنان لا لأقرأ.. بل من أجل الالتذاذ بتقليب الكتب وتقبيلها.. ثم أعود لنوم هانىء مبكر فنصحو على تجاوب أرجاء القرية بأذان الخال عمر بن محمد ابن عقيل، وعبدالرحمن بن إدريس، وابن حماد، وابن شيحة رحمهم الله جميعاً.. ومن تلك اللحظة تنبعث الحياة في القرية.

قال أبو عبدالرحمن: لله ما أطيب العيش وألذه في تلك المعاهد والمرابع.. لا نعرف هموماً ولا عقداً ولا طموحاً في المركب والمسكن يفرضه التباهي

(١) مثلي في ذلك مثل رجل من حرب أهل البعايث حدثني ابنه أنه كان صغير السن فلما رأى البرق اكتسح إبل والده يرعاها ليس معه غير بندقية وقدح يحتلب فيه، وطالت غيبته أربعة أشهر لا يعلم والده أحي فيرجى أم ميت فيبكى؟!.
فعاد مفاجأة بالإبل، وسنام الواحدة طول يدها، فكان فرح الوالد بالإبل أكثر من فرحه بابنه.
وذهب الليل كله حتى أذن الفجر وهو يدور بين الإبل ويمسحها ويتأمل أسنمتها.
وإن لذته بتقليب إبله قد لا تقل عن لذتي بتقليب كتبي!.

في الكماليات التي فرضها علينا الخواجات وليست من بيئتنا ولا فطرتنا، بل كان ما تحمله جلودنا ورؤوسنا وما يحمل أقدامنا لا يتجاوز سبعة ريالات.

وظللت أنمي مكتبتي، وفي نفس الوقت كنت أبيع منها بأبخس الأثمان كلما بدت لي حاجة.. فلما تيسر حالي كان كل ما فضل عن قوتي وقوت أهلي وولدي لتزويد المكتبة، ولم يحدني في التزويد مسيس حاجة أو نوع تخصص، بل المقياس أن لا يكون الكتاب عندي.

وذهبت تلك اللذة ـ أو معظمها ـ التي أجدها من جراء امتلاك الكتاب، وتقليبه، وتقبيله، وإعادة ترتيبه مع رصفائه.. ذلك أن الكتب كثرت جدًّا. فما كنت قط أحلم بأنني سأملك مطبوعاً كتابي التمهيد والاستذكار لابن عبدالبر، والسنن الكبرى ومعرفة السنن والآثار للبيهقي، ومصنفي عبدالرزاق وابن أبي شيبة، وتفاسير ابن جرير وابن عطية والرازي.. إلخ، وكتب إعراب القرآن، ونحو سيبويه والمبرد وأهل الأندلس.

وتعبت ماليًّا وبدنيًّا في تصوير نوادر المخطوطات على الورق والميكروفيلم ثم فوجئت بها مطبوعة محققة وغير محققة.

وفي عام ١٤١٢هـ صار عندي تأزم من مكتبتي في سلطانة وشبرا الرياض لأمور:

أولها: أنني أبحث وأخوض في مسائل علمية متعددة، وأحاول إشباع كل موضوع من مختلف المصادر.. فمرة أنشط لإعادة الكتب إلى أرففها، وأكثر المرات لا أنشط، فإذا اختلطت علي الكتب أصبح البحث عن كتاب بين الأنقاض أصعب من البحث عن مسألة في كتاب!!.

وكنت في سنين خلت أرتب كتبي في أيام وأسابيع، ولا أصل إلى شهر.

وهذه المرة عندما انتقلت إلى شبرا من الملز ما تم ترتيب كتبي إلا في سنتين ترتيباً متسامحاً فيه .

وثانيها: التأزم في البحث بسبب التكلف، فعندما أتقصى مسألة من مكتبتي الحديثية أحب تقصيها من كتب التفسير واللغة والفقه وكتب التراجم العامة . . وهذا هوس علمي بلا شك! .

وبهذا السبب بقيت عندي مسائل عديدة معطلة لم تنجز، ومزقت في لحظات من التأزم مسائل عديدة وقفت عندها وقوف المنبت لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع .

وهناك علماء خواجات كفار لم يرح الله قلوبهم بالسلام ولذة الإيمان تمزقوا نفسيًا أو انتحروا ـ واغوثاه ونسأل الله السلامة ـ لأن أعمالهم لم تنجز!! .

ولا ريب عندي ـ بعد هذه التجربة ـ أن البعد عن كثرة الكتب لدى إعداد مسودات البحث أولى .

فإذا تم إعداد مسودات البحث من الأمهات، وأقام هيكله عارض واستأنف رأيه وعلل ودلل، ثم مر على بقية المصادر متنزهاً يقتنص شاردة من هنا، ويتم نقصاً من هناك .

بل رأيت شيخ الإسلام ابن تيمية يكتفي بمصادر معدودة جدًا لا تزيد على أصابع اليد الواحدة، وربما لم يعزو إليها، ولكنه من فضل خبرته العلمية يناقش ويرجح ويعلل ويدلل .

ففي مسألة قصر صلاة المسافر ـ وهي من المعضلات ـ لم تتجاوز مصادره في مجموع الفتاوى المصنف لابن أبي شيبة، والمحلى لابن حزم، والتمهيد لابن عبدالبر .

وثالثها: أن القراءة على ثلاثة أنحاء:

أ ـ قراءة تثقف وإحاطة بالكتاب.

وهذا لا يتيسر لمن كثرت كتبه وعظمت مكتبته.

وإنما يتحقق ذلك لمن أبعد عن المكتبة، وحمل معه كتيبات معدودة يتفرغ لقراءتها.. فإن كانت تلك الكتب أو بعضها معارة فذلك أنجح لاستيعابها.

قال أبو عبدالرحمن: لهذا كان البعد عن مكتبتي مطلباً.

ب ـ قراءة للتعليم، أو للمذاكرة والمكاثرة إن لم تصلح النية.. وهي قراءة تستوعب حفظ معاني كتيب من الأصول، أو حفظه وحفظ معانيه كبلوغ المرام في الحديث، وزاد المستقنع في الفقه، وشرح ابن عقيل في النحو.

قال أبو عبدالرحمن: وهذه الأصول حُفِّظناها ـ بصيغة البناء للمجهول ـ في مراحل الدراسة المنهجية، ثم نسيناها (بصيغة البناء للمعلوم).

وغاية ما هنالك أن المستوعب لأصل من تلك الأصول يذاكر به في مجالس التعلم والتعليم، ويثري أصله شرحاً وتعليلاً وتدليلاً واعتراضاً ومحاجة من مذخور قراءته، ومن مستأنف مطالعته، ومن مشاهدته ومشافهته في مجالس التعليم والتعلم.

قال أبو عبدالرحمن: ولهذا أيضاً صار البعد عن مكتبتي الضخمة مطلباً؛ لأن إغراء الأرفف ـ ولو للتقليب والتقبيل ـ لن يتيح لي مجال التفرغ لأصل من الأصول.

جـ ـ قراءة للتأليف والبحث المشبع، وهذا معظم صنعتي.

والقراءة هاهنا أرشيفية غير ممتعة، لأنك تلتقط وتقمش وذهنك في التصفح مشدود بالمسألة التي تريدها، وإنما المتعة أثناء التأليف وبعد تمام البحث.

ولكن لابد من الاقتصار على عدد من الأمهات في مختلف المذاهب حتى يتم هيكل البحث كما أسلفت، ثم يأتي التقميش والإشباع من بقية المصادر في تصفح نزهة بعد استيفاء مسائل البحث وفهمه، وذلك أعون على الالتقاط.

قال أبو عبدالرحمن: لهذا رأيت ضرورة البعد عن مكتبتي الضخمة.

قال أبو عبدالرحمن: ولما تقاعدت عن العمل الحكومي الرسمي مبكراً ولم تسقط أسنان الرضاع من فمي بحمد الله وشكره، ولما كانت لدي كتب تاريخية شغلتني منذ أعوام سأفرغ منها بحول الله وقوته آخر هذا العام ومطلع العام القادم لأتفرغ للعلم الشرعي، ولما عزمت على قضاء بقية عمري متنقلا بين مكة المكرمة وطيبة المنورة أم المساكين.. لما كان كل ذلك رأيت أن أترك مكتبتيَّ الاثنتين بالرياض ليقوم بفهرستها وترتيبها أجير مختص حتى إذا ما جئت إلى الرياض زائراً ومستجمًّا تنقلت بين المكتبتين ملتقطاً ومقمشاً لإشباع مباحثي التي أقمت هياكلها من الأمهات ونشرت بعضها في الصحف[1].

ولا علي من تكرار شراء أمهات الكتب في التفسير والحديث والفقه المقارن غير المذهبي والأصول والنحو واللغة موزعة بين المسكنين بمكة والمدينة، لأن الكتب كثرت بحمد الله ورخصت.

ومقياس الرخص نوعية النشر، ونسبة السيولة مقارنة بالعهود السابقة.

---

(١) وفي آخر عام ١٤١٤هـ وأول عام ١٤١٥هـ تم بيع مكتبتيَّ على مكتبتين عامتين.

فشرائي لمدونة الإمام مالك منذ خمسة وثلاثين عاماً بخمسين ريالاً وثلاث مئة ريال وهو أربعة مجلدات غير محققة، وأنا يومها طالب لا يتجاوز راتبي مئتي ريال شهريًا . . شرائي بهذا الثمن يعد قمة الغلاء والسفه .

واليوم قد أشتري كتاباً مثله ولكنه في ثمانية أجزاء محققاً مفهرساً بطباعة أنيقة كطبعات دار الغرب الإسلامي بمئتين وخمسين ريالاً أو ثلاث مئة ريال . . فهذا رخص وبذل غير سخي، لأن سيولة اليوم أكثر، ولأن ثمن اليوم أقل، ولأن الكتاب المطبوع اليوم أكثر خدمة وأناقة .

قال أبو عبدالرحمن: ويسوِّغ لي إنشاء مكتبة في التفسير مكررة بطيبة الطيبة، ومكتبة حديثية بمكة المكرمة أنه يوجد موسوعة هائلة في الفقه الشافعي مثلاً فلا أشتريها لأن عندي ما يقرب منها كالمجموع أو الروضة .

وهاهنا ما دمت بعيداً عن الرياض يسهل علي تأمين ما عندي في الرياض قريب منه .

وعندي في الرياض عديد من الكتب الأمهات قديمة الطبع ذات الورق الصفر الذائبة، وقد طبعت طبعات حديثة أنيقة محققة مفهرسة فعظم علي تكرار النسخ، ولا يعظم علي ذلك إذا كنت بعاصمتي الحجاز المقدستين .

وفي يوم الأربعاء الموافق ٢٢/ ١٠/ ١٤١٣هـ كنت أذرع مكتبة النهضة بمكة المكرمة فأطير فرحاً كلما وجدت كتاباً تراثيًا جديداً محققاً، ثم أصعدوني للدور الثاني فوجدت الكتب القديمة ذات الورق الأصفر ليس لها طالب، وكانت فرحتي بها منذ سنين لا تقدر بثمن! .

ونزلت من الدور الثاني لم آخذ من الكتب القديمة كتاباً واحداً: إما لأنه عندي، وإما لأنني وجدته بطباعة حديثة محققة .

قال أبو عبدالرحمن: والخلوة مع الأمهات والأصول في فنون محصورة

أعون على طلب العلم.

قال أبو عبدالرحمن: وبهذه المناسبة أحذر طلبة العلم ذوي الدخول المحدودة الذين يقبلون على شراء الكتب بنهم - مثلي في الصبى -.. أحذرهم من لصوص الكتب وهم فئتان:

الأولى: فئة مؤلفين أو محققين بالتجوز يعمد أحدهم إلى فصل من كتاب ويضع له عنواناً جديداً ويطبعه على أنه مؤلف استجد في المكتبة لعالم قديم!!.

لقد طرت فرحاً بكتاب جديد عن النساء لابن عبدربه فإذا به فصل من العقد الفريد، وآخر عن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم لابن كثير فإذا به فصل من البداية والنهاية.. إلخ.. إلخ!!.

وهكذا يفعل بكتب ابن تيمية وابن قيم الجوزية.. وهذا تدليس وغش، وكسبهم من هذه الكتب حرام حرام.

وواجب عليهم أن يبقوا عنوان الفصل كما هو، فإن لم يوجد له عنوان وضعوا له عنواناً مستنبطاً بدون سجع حتى لا يوهموا طالب العلم بأنه كتاب جديد، ويلزمهم أن يصدروا العنوان بكلمة فصل أو باب أو مبحث، وأن يبينوا تحت العنوان - في الغلاف الخارجي - أنه مستل من الكتاب الفلاني.

والثانية: فئة ناشرين وطابعين كدار الكتب العلمية يسطون على كتاب طبع في ستة أجزاء كالمحصول للرازي ثم يجردونه من حواشيه ويطبعونه في مجلدين.

وربما سطوا على بعض التعليقات.. ومعظم كتب العلماء والمحققين سرقتها دار الكتب العلمية بهذا الشكل.

وهناك دار نشر في الباكستان أظن أن اسمها السلفية سرقت كتباً بمتونها وحواشيها ككتابي جوامع السيرة، وجمهرة أنساب العرب للإمام ابن حزم بتحقيق الأستاذ الدكتور إحسان عباس. . طبعتهما وسوقتهما على وزارة المعارف، والرئاسة العامة للبحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، ولم يتح لي اللقاء بعد بأستاذي الدكتور إحسان عباس لأعلمه ما فعل بكتبه وجهده!.

وقد لقيت أحد السطائين من ممثلي المكتبة السلفية المذكورة، وناقشته عما أباح له هذه السرقة؟!.

فزعم أن أحد كبار المشايخ في البلد أفتاه بجواز ذلك، وأنه لا حجر على نشر العلم.

وأظنه كان كاذباً على الشيخ، وحاشاه أن يفتيه باستباحة الظلم!.

قال أبو عبدالرحمن: ليست هذه المسألة من مسألة أخذ الأجرة على العلم في شيء، ومن حرمه بإطلاق فلا دليل له، وغاية الأمر الكراهة، والإباحة أصح.

وكراهة أخذ الأجرة على العلم لا تعني الإذن للآخرين بأخذ علم غيرهم غصباً.

ومسألتنا كما قلت ليست ذات علاقة بالخلاف في أخذ الأجرة على التعليم، بل فيها أمور مادية تباع وتشترى من صف للحروف وتصحيح وتبويب وترقيم وفهرسة.

وفيها خيوط دقيقة من الاستصناع فالمؤلف والمحقق يقاسم الكتبيين رزق أولاده بشراء المصادر والمراجع، ويقصر رجله عن الالتذاذ مع الأصحاب والتفكه في النزهات، ويؤذي زوجته بمسامرة ما هو أثقل عليها من الضرة، ولا يحسن الصفق في الأسواق، فالظاهرة أن طالب

العلم أخرق في أمور الدنيا. . وهو ينهك بدنه بالسهر، ويتلف عويناته بالنظر، فإذا فرغ من تأليفه أو تحقيقه، وقدمه للمطابع دفع للمطبعة حصيلته المالية من قوت الرقبة، وربما استدان أو اقترض، وبعد أن يدفع قيمة الطبع نقداً ينتظر عودة ما دفعه نسيئة مقطعاً خلال سنة أو سنتين مع ربح ضئيل لا يدري أيوسع به على أهله، أم يساهم به في طبع أثر جديد؟!.

فكيف يباح بعد ذلك السطو على تعبه وعرقه، وكيف لا ترفع جائحته، إذ ربما كان كتابه مخزَّناً في بيته ثم يفاجأ بمن يطبعه ويبيعه برخص، لأنه لم يخسر فيه كما خسر مؤلفه؟!.

هذا مع الحقوق المعنوية.

تباريح الصحافة

قال أبو عبدالرحمن: ومنذ إنهائي المرحلة الدراسية الجامعية أُعْتَبَرُ خرجت من حضانة التتلمذ والتلقين إلى آفاق الكتاب والصحافة والمذياع، وخرجت من مدلول ما هو في حيز (مَن) في قول الناظم:

من لم يشافه عالماً بأصوله
فيقينه في المشكلات ظنون

وكان أبو حيان يعيب إمام أهل النحو ابن مالك ـ وهو من هو ـ بالتعري من المشايخ.

وكان الشاطبي يعيب ابن حزم ـ رحم الله جميعهم ـ بالتعري من الشيوخ، وكأنه لم يحقق سيرة ابن حزم، ولم يشرف على برنامجه، ولم يطلع على أسانيده في كتبه.

وأرجو أن يكون جهل حاله ولم يكن متجنياً عليه عن علم وعمد.

وبحثت عن مشايخ غير مشايخ المراحل الدراسية فكان حظي وحظ أترابي سيئاً جدًّا، فليست هناك حلقات لمشايخ في البيوت أو المساجد، بل ألغيت دروس العلماء الخاصة منذ وجدت المراحل الدراسية أو التعليم المدني بعرف العصر.

وإنما كانت هناك جلسات وعظية لسماحة الشيخ ابن باز في المسجد الجامع الكبير، وربما جلس للاستماع منه قلة يتلقون علم الفرائض.

وإنما يتاح لي الجلوس في حلقات المشايخ بالحرمين الشريفين إذا زرتهما في لحظات عابرة.

وتحصل المذاكرة مع بعض مشايخي في المراحل الدراسية، إلا أنهم لنبلهم جعلوا التحصيل مشتركاً كما يثافن الند الند، وأبوا أن تكون الجلسة في نظام عالم ومتعلم.

ظننت أن حلقات المشايخ ولت إلى غير رجعة، ونعيت في يومياتي بجريدة البلاد عام ١٣٨٧هـ تقريباً قوماً يأخذون العلم جثيًّا على الركب، وترحمت على تلك المنابر!!.

وإذ عدمت في الساحة ظاهرة الحلقات والمعممين قلت في نفسي: لو خليت لخربت!!.

فذهبت أبحث عن الأسماء اللامعة في الصحافة ممن ينعتون بالألقاب الفخمة كلقب أحمد لطفي السيد ما عدا الدالات فلم تولد في جزيرتنا بعد!!.

فأبحرت معهم طويلاً، وقضيت معهم أكثر من خمسة عشر عاماً من سني الضياع والفراغ، وتحقق لي بآخرة صدق المثل الحجازي: «راح اللي يقروا وجاء اللي...».

ليس عند هؤلاء القوم طروس تفرز إلى ما يحفظ وإلى ما يفهم من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وأصول عقيدة ونحو ولغة وأدب.

بل كل ما علا من هذه الفنون فهو صنعة طلاب!!.

وليس عند القوم طروس تدريس في الوعي السياسي تأصيلاً عن النظرية السياسية وتطبيقاً عن تقلبات التاريخ المعاصر.

وليس عندهم ثقافة تحوِّل علم المخترعات والمكتشفات إلى معلومات شعبية عامة!!.

إنما القوم ما بين صحافي يكتب عن مستوصف أو مطبات شارع،

وكان المثقفون قلة، وكان المصفقون للكلمات الاجتماعية جمهوراً من العامة.

وصحافي آخر يدعي الوعي السياسي وليس عنده إلا تضخيم وشقشقة ثلاثة أسطر في عمود من أعمدة الأهرام، أو تكبير صورة مما صورته المصور أو آخر ساعة.. أو تلمظ بمقالة طائفي كثير التحرر نشرتها مجلة الأحد.. أو إعادة صياغة عبارة قالها الزعيم في خطاب له ألقاه ليلة الأحد أو الجمعة وهو يهدر بأمة من الخليج إلى المحيط شعارها الأخوة في العروبة، وبقوة ليس في الشرق الأوسط أقوى منها!!.

وثالث يقول: العلم ما قال ابن الكلبي والبكري وياقوت.

وبين حانا ومانا ضاعت لحانا، واستعرنا حاسوب التقنية الحديثة لنحصي مكاسبنا فلم نجد غير أصفار على الهامش الأيسر، لأن المتصدرين للمنابر الإعلامية كانوا أصفاراً.

فهنيئاً لكم يا أبناء الصحوة الإسلامية المباركة الراهنة مشايخ علموكم القرآن بالقراءات، ودربوكم على حسن التغني به، وسدوا فراغ ذاكرتكم بحفظ الحديث وأمهات المتون، وكان الفارغون يقولون: زاد نسخة في البلد!!.

اللهم يا معلم آدم وإبراهيم علمنا.
اللهم يا مفهم سليمان فهمنا.
وانفعنا بما علمتنا وفهمتنا.

تباريح وجدانية

وثمة هموم ثقافية وجدانية في آن واحد . . هي هموم ثقافية لأن مادتها الأدب وبالأخص الجانب الغنائي منه وهو الشعر الغزلي . . وهي وجدانية لأنها من أدب العواطف .

وفي الصدارة من ذلك الترنح الخيامي . . ومن العجائب أنني كنت نائماً في سبات عميق، وأنني كنت في سبح أدبي ـ ليس فكريًّا، ولا وجدانيًّا ـ مع ما نسب للخيام :

لبست ثوب العيش لم أستشر
وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عني ولم
أدرك لماذا جئت أين المفر؟!

ومع هذا الطرب الأدبي كنت في وحشة من المعنى، وكنت أنظم أفكاري لتدوين الظروف التاريخية التي عشتها لذلك الصداح .

وسر العجب أنني منذ سنين عديدة منصرف عن التهويم الأدبي والفني . . وقد أهش للتهويم الأدبي، أما التهويم الفني فكنت منه في عافية بحمد الله وفضله، بل كان لا يريحني ولا يطربني .

فما الذي جعل الخيام ورامي وتوابعهما يخطران ببالي مناماً؟! .

وعجب آخر أن أخي الشيخ أحمد بن محمد اليحيى بُعيد حلمي وقبيل سفري للمدينة المنورة بأويمات مساء السبت ليلة الأحد ٦-٧/ ٩/ ١٤١١هـ ذكر لي كتيباً اقتناه للأستاذ أنور الجندي عن الخيام، وردد في مذاكرته لي : لبست ثوب العمر! .

وهاتان المناسبتان قد تحركانني أحياناً إلى تناول بعض ترجمات رباعية من الرباعيات على نحو ما فعلته في كتيب نشر لي قديماً بعنوان فلسفة الكوز.

ولكنني قبل ذلك أعلل خطور الرباعية الخيامة بمنامي رغم مقتي لها فكريًّا ووجدانيًّا، ورغم عزوفي عن ذكرياتها الفنية.

والعلة في ذلك والله أعلم أن تلك الأجواء الطروبة هي مناخنا الفني والأدبي حقبة من الزمن، وكان الفن وبلاغات الأدباء وخطب المحترفين كل ذلك مجند لتخدير ناشئتنا وتحييدها وتهميشها ومزجها بالأحلام والأوهام.

والتحرر من العادة أصعب من تكوينها، ولهذا كان تحولي من العادة الخيامية صعب جدًّا رضته بعزائم الأمور فضلاً من ربي ومنة حتى كونت عادة علمية وأدبية ووجدانية خيراً وأزكى. . ذلك فضل الله ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [سورة الزمر / الآية: ١١].

بل هناك أصوات أعثر بها في المذياع وأنا بصدد البحث عن خبر ـ أيام أزمة الخليج ـ فأهرب منها على عجل لأنها تؤذيني فأتقزز منها، وكانت قبل ذلك تسليني وتشجيني، فسبحان من له المنة والفضل الذي غير الأسوأ إلى أحسن.

فلما حرمتُ الرباعيةَ الخيامية تجليات الوعي خالستني في المنام، ومع هذا كنت منها في وحشة.

ورباعيات الخيام جمعت اللذة البيقورية، والجنوح النؤاسي، والبكاء الجبري المريض العاتب، وكان الشاعر والمطرب ناعقين، وكانت السمِّيعة قطيعاً سائماً، وليس هناك من يحرك القلوب بالتلاوة غير عبدالباسط وقلة

معه مع تلحين في تلاوتهم، وكان المطربون أكثر من المقرئين أضعافاً مضاعفة!!.

والآن سقط جيل الطرب، ولامست الأصوات الجميلةُ المرتلة لكتاب الله وجدانَ الجماهير، فالحمد لله حمداً كثيراً لا نحصي ثناء عليه.

وقد رام بعض الأحباب أن يجرِّعني الاستماع إلى مقطع أسألك الرحيلا التي كان يُعدُّ لها من سنتين ونزلت في أزمة الخليج.. فما قدرت.. وإن مواء القطط ونهيق الحمير لأجود صوتاً منها حسب إحساسي.

وقد منيت هاته المناسبات المريضة بالفشل الذريع، وعجزت عن إغواء الجماهير وتحييدها، فالحمد لله الذي أراني فيهم عجائب قدرته.

والرباعية التي أسلفتها من ترجمة رامي، وهي التي يدندن بها الشاب على سيارته ومكتبه إذا قرب من التثاؤب أخريات الدوام الرسمي أيام جيل الرخاوة والضياع.

ووردت في ترجمة محمد الهاشمي هكذا:

حياتي في الدنيا أذى واضطراب
وبقائي تحير وارتياب
وبقسر يكون مني ذهاب
أي قصد من جيئة وبقاء
وذهاب قد ضلت الألباب

وفي ترجمة عبدالحق فاضل وردت هكذا:

آه لو كان مجيئي بيدي ما كنت جئت

آه لو كان ذهابي باختيار ما ذهبت

كـان خيراً لي في دار الفنا لو أنني
لم أكن جئت ولا عدت ولا كنت أقمت

وفي ترجمة أحمد زكي أبو شادي عن فيتزجرالد :

إلى هـذه الـدنيـا أتيـت ومـا أدري
لماذا ومـن أيـن بطـوعـي أو رغبـي
كماء ومثل الريح في القفر هبُّها
إلى أين لا أدري على الطوع والرغم[1]

وفي ترجمة جميل الملائكة :

منـزل مـوحـش الجهـات يبـاب
مـــا لـــه شرفـــة ولا أبـــواب
وقـرانـا فيـه الأسـى والعـذاب
شرك فيـه قـد وقعنـا حيـارى
لا أتينـا هـذا المكـان اختيـاراً
لا ولا كـان مـا يـزيـد الـذهـاب

وفي ترجمة العريض :

أتيـت ومـا بـاختيـاري أتيـت
ولمـا وهـىٰ خيطهـا بي هـويـت
تلقـــى على كـــاهلي ضعفهـــا
لاذا جنيـــت فمـــاذا جنيـــت

وفي ترجمة نويل عبدالأحد :

---

(١) لعل هذا من بواعث فكرة الطلاسم عند إيليا أبو ماضي .

أرى نفسي في هذا الكون العجيب
لا علم لي من أين أتيته ولماذا؟
وماذا يكون لو لم آته؟
وإلى أين أنا سائر؟
وإلى أين سأنطلق رضيت أم أبيت؟

قال أبو عبدالرحمن: وأحمد رامي يترجم عن فيتزجرالد، فلعله جمع بين رباعيتين وأسقط من الرباعية الثانية ما يتعلق بالراح، فإن رامياً يصنف معاني الرباعيات ويترجمها.

والرباعيتان المذكورتان وردتا في ترجمة أحمد الصافي النجفي هكذا:

لا تحسبنِّي جئت من نفسي ولا
قطعت وحدي ذا الطريق المعنتا
إن يك منه جوهري ومنشئي
فمن أنا وأين كنت ومتى؟!
إذ كنت قبل أتيت الدنيا
(م) بدون اختيار
وسوف أرحل حتماً
عنها غداً باضطرار
قم نديمي سريعاً
واعقد نطاق الإزار
فسوف أغسل هم الدنيا
(م) بصافي العقار

وربما اكتفى بأول الرباعية الثانية وأضاف إليها رتوشاً، وهذا نص الرباعية الثانية بترجمة وديع البستاني:

برؤيي أقدمت هذي الديارا
سأضطر للرحيل اضطراراً

قال أبو عبدالرحمن: كانت السمِّيعة يومها رعاعاً لا تحاكم علقلياً، وليس لها رصيد من العلم الشرعي تزن به، ولهذا كثرت الضحايا من صرعي المواخير.

وعند عبدالحق فاضل:

جئت لكن لم أجي عن رغبتي أو طلبي
وسأمضي لا بتدبيري ولا عن أربي... إلخ

وترجمة رامي أبرع الترجمات فنيًا، لأنه صنف المعاني العامة ولم يتقيد بالحرفة، ولأنه أراد أن يكون شريك الخيام في أشجانه.. كيف لا وهو عفا الله عنه ممن خدَّر أبناء جيلي بهجرتك وأخواتها؟!.

قال أبو عبدالرحمن: رباعيات الخيام بمواهب الست ورامي والسنباطي أحدثت في أبناء جيلي رخاوة وهوساً سلوكيًا ووجدانيًا لا يجلي ضرره إلا واقع الصحوة المبارك، فشتان ما بين مشرق ومغرب!.

والشعر الذي هو أدب العواطف والعقول والأخيلة أصبح حكمه الشرعي همًّا يتجاذبه الأدباء وطلبة العلم الشرعي، وقد كتب الدكتور غازي القصيبي ـ وهو الأديب المرهف، والسياسي الضخم ـ كتيباً بلغة الفقهاء والمحدثين والمفسرين سماه «من هم الشعراء الذين يتبعهم الغاوون»؟؟!.

قال أبو عبدالرحمن: والشعر إذا كان عفًّا أو نافعاً صفة كمال، بل هو أترف الصفات الكمالية.

ولهذا رد المحاج على من تبرأ من الشعر لأن رسول الله صلى الله عليه

وسلم غير شاعر بقوله: عدم الشعر في رسول الله كمال، وعدم الشعر فيك نقص.

وقديماً كان في الناس الحسد، فإن حنيف بن سعيدان لما عجز أن يكون فناناً في قمة ابن سبيل عيَّره بأنه قمرية تلعي!!.

ولعل أبا سهيل القصيبي غازي سمع ما سمعه ابن سبيل من حنيف فانبرى للجانب الفقهي في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾.

[سورة الشعراء/ الآية: ٢٢٤]

قال أبو عبدالرحمن: هم القصيبي هاهنا من جمرة همي، والفقه في أحكامه بحر إخال أنني أجيد السبح فيه.

وإنما أضع هذه المهاتفة عن شيخ الفساق الحسن بن هانىء الحكمي بمقالة تشبه حل المنظوم ليعلم الناس أن مثل ذلك الشعر محرم بإجماع، وقد يكون منه لمم، لننطلق بعد ذلك في تبيان الأحكام على بصيرة.

ولقد ظلم جورج جرداق إمامه الحكمي عندما قال: والنؤاسي عانق الخياما!!.

قال أبو عبدالرحمن: إنما ذلك للقافية، وإنما الخيام عانق النؤاسي.

ولقد بدا لي من الاستقراء رأي أرجحه ولا أجزم به في هذه اللحظة، وهو أن النؤاسي زنديق تحبه الدهيماء لظرفه واستحلاء فسقه الأدبي.

وليس هو مجرد ماجن ليست عنده هموم معادية، لأنه يضيف إلى المجون السلوكي المحادة لله عقيدة مما يوصف بأنه مجون فكري.

وهو إلى ذلك إمام الشعوبية، ولا يبغض أمة العرب بعد الإسلام إلا منافق.

وللإمام ابن حزم في الفصل كلام جيد عن زنادقة الأمم المتسترين بالمجوسية وشبهها، وخلفهم اليوم الأقليات العرقية الطائفية التي تسقط قرون الهجرة من التاريخ الحضاري والمعايشة العربية المعتبرة.

وعندما يتماجن لا ينسى التشهير بالقيادة كقوله: وهذا أمير المؤمنين صديقها!!.

فإن لحته عاذلته عن الفسق قال: فشقي اليوم جيبك لا أتوب!!.

يباكر لذاته والديك قد صدحا، وإنما يصدح أبو حسان في الفجر عند تنزل ملائكة الرحمن عليهم السلام.

ومن هموم الحكمي أن مرابعه الكرخ وقطربل، وليست منزلة تحل بها هند وأسماء.

ويسوؤه ألا تكون بغداد مربعاً تقر فيه نفسه، لأن فيها نظام القبائل والعشائر العصبية القبلية قبيلات وأفخاذاً!!.

وأعظم تنغيص يعايشه في التراث الأدبي أن يجد نعت دمنة، أو زجر أشأم!!.

وبلغت به الشعوبية، أو الغرق في اللذة، أو الثأر للزندقة المجوسية أن يفضل الفسق على الجهاد كما في قوله:

إذا ما بدا أزرار جيب قميصه
تطلع منها صورة القمر البدر
فأحسن من ركض إلى حومة الوغي
وأحسن عندي من خروج إلى النحر
فلا خير في قوم تدور عليهم
كؤوس المنايا بالمثقفة السمر

تحيـاتهـم في كـل يـوم وليلـة
ظبـا المشرفيـات المـزيـرة للقبر

ومثله قصيدة أحسن من منزل بذي قار .

ففي خلال تعداد الملذات النؤاسية قال :

وشـم ريحـانـة ونـرجسـة
أحسـن مـن أينـق بـأكـوار

و :

ألـذ مـن مهمـه أكـد بـه
ومـن سراب أجـوب غـرار

و :

أحسـن عنـدي مـن أم نـاجيـة
وأم عمـرو وأم عمـار

و :

أحسـن مـن سير على نـاقـة
سـير على اللـذة مقصـار

وعلى العموم فعنده أن صفة الطلول بلاغة الفدم .

ومن هاهنا قال :

أحـب إلـيَّ مـن وخـد المطـايـا
بمـومـاة يتيـه بهـا الظليـم
ومـن نعـت الـديـار ووصـف ربـع
تلـوح بـه على القـدم الـرسـوم

رياض بالشقائق مونقات
تكنف نبتها نور عميم
كأن بها الأقاحي حين تضحي
عليها الشمس طالعة نجوم

وإذا كانت ظبا المشرفيات تروع الحكمي ـ إذ كانت تحيات المجاهدين ـ
ن للتحية عنده لغة ثانية، وهي دلالة من دلالات العيون:

بدء التحية بينهم
نظر النديم إلى النديم

وتظل التحية على شبابها حتى ينعى الليل بالناقوس رهبان!!.

وساعتها يكون كل واحد منهم رأى الديك حماراً:

خلنا الظليم بعيراً عند نهضتنا
والتل منبطحاً في قد ثهلان

قال أبو عبدالرحمن: يحسبون القد عامية، وإنما هي فصيحة أصلها
.ه على قده فتولد من ذلك معنى القدر.

ومثله:

ويرى الجمعة كالسبت (م)
وكالليل النهارا

وهي ليلات تغرقها التفديات بالعم والخال وتمتهن فيها الأنساب
لأرحام:

بتفدية تذل النفس فيها
وتمتهن الخؤولة والعموم

ولكم عصروا أعينهم فحلبوا من أجل الود ماء المآقي، ولكم قهقهت الملح (جمع ملحة).

ومن لم ير كالليل النهارا أفتبقى عنده بقايا من الحكمة كحكمة الأخطل في لحيظة قال عنها:

خرجت أجر الذيل تيهاً كأنني
عليك أمـير المؤمنـين أمـير

وغزوات الغاوي إنما هي إلى خيمة ناطور برأس منيفة يلوذ بها الحكمي من هجيرة شديدة الحر عبورية (نسبة إلى الشعرى العبور).

وربما رضع كرمة يظلله منها فينان ما في أديمه جوب ـ جمع جوبة، وهي الفجوة ـ: بمعنى أن الشجر كثير الورق ليس فيه فجوات تنفذ منها الشمس.

وتلك الرضعة يسميها درة، ويحاشيها من بناء الخيام لها، أو أن تروح عليها الإبل والشاء، وكان يسميها درة الصبا.

وطالما عير بها ما سماه شراب الصالحين من انتباذ أهل العراق، وهو نبيذ التمر المطبوخ.

وطالما قام يحبو ليرضع من كرمته.

ومضيفاه إما ساق، وإما ساقية لها محبان!!.

يصيد الشمس في باطية، ويعجب من ليث رأى ظبياً فواثبه!.

كما أنه يركب ركوباً مروزيًّا، وفي نيتي أن أسأل شيخي أبا تراب عن صفة الركوب المروزي.

يأخذ قهوته من كف كأنها فلقة جمار.

وصفة ندمائه على القهوة ـ وهم أول من سمى ذلك بغير اسمه ـ أنهم
ذوو نظام :

ستهم في شربها بينهم
من ردها صبت على راسه
إذا حساها بعضهم لم يدع
ما يغمر الذرة في كاسه

قال أبو عبدالرحمن : لعله يلتفت في ذلك إلى عادة العرب في وزن الماء بالحصى، وقد بقي ذلك متوارثاً إلى عهد قريب كما في قول شليويح العطاوي : وإن قلت الوزنة وربعي مشافيح .

ونداؤهم : هات يا هيتي ! ! .
وهو ساق من أهل هيت واد بالعراق .
وصلاة نديمه أبدا قضاء .
وليلة القصف يسميها صالحة :

عليك وجه سيىء حاله
من ليلة بت بها صالحة

وربما أصيبوا بعض المرات بداء اللثغة فقالوا : كم لقي الناث من الناث .

كما قال نديم ابن أبي الهداهد : موثى .
يعني موسى ! .
كلهم أنضاء كأس ، ولهذا لثغوا .
وبعضهم عف الجفون في النظر العمد حذاراً على فؤاد النديم ! .
ومنهم من يدنى خلخاليه من شنفه إذا رآه كأنما يمشي إلى خلفه .

ولقد ألم أبو نواس بلغة العيون كما في قوله:

يدل على ما في الضمير من الفتى
تقلب عينيه إلى شخص من يهوى

وقوله:

تجمع عيني وعينها لغة
مخالف لفظها لمعناها
إذا اقتضاها طرفي لها عدة
عرفت مردودها بفحواها

قال أبو عبدالرحمن: مثل هذا إن شاء الله من اللمم، وقد تقصاه شيخنا الإمام أبو محمد ابن حزم رحمه الله في الطوق فقال: «فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر، وتفتيرها إعلام بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها آية الفرح، والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه، والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتيهما سؤال، وقلب الحدقة من وسط العين إلى الموق بسرعة شاهد المنع، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عام، وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة.

واعلم أن العين تنوب عن الرسل، ويدرك بها المراد.. والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً.

وهي رائد النفس الصادق، ودليلها الهادي، ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات.

وقد قيل: ليس المخبر كالمعاين، وقد ذكر ذلك أفليمون صاحب

الفراسة وجعلها معتمده في الحكم.

وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعها شيئاً ما مجلوًا صافياً (إما حديداً مصقولاً أو زجاجاً أو ماء أو بعض الحجارة الصافية أو سائر الأشياء المجلوة البراقة ذوات الرفيف والبصيص واللمعان يتصل أقصى حدوده بجسم كثيف ساتر مناع كدر): انعكس شعاعها فأدرك الناظر نفسه ومازها عياناً.

وهو الذي ترى في المرآة حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك.

ودليل عيان على هذا: أنك تأخذ مرآتين كبيرتين فتمسك إحداهما بيمينك خلف رأسك، والثانية بيسارك قبالة وجهك، ثم تزويها قليلاً حتى يلتقيان بالمقابلة، فإنك ترى قفاك وكل ما وراءك، وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرآة التي خلفك، إذا لم تجد منفذاً في التي بين يديك.

ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف إلى ما قابله من الجسم، وإن كان صالح غلام أبي إسحاق النظام خالف في الإدراك فهو قول ساقط لم يوافقه عليه أحد.

ولو لم يكن من فضل العين إلا أن جوهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكاناً، لأنها نورية لا تدرك الألوان بسواها، ولا شيئ أبعد مرمى ولا أنأى غاية منها، لأنها تدرك بها أجرام الكواكب التي في الأفلاك البعيدة، وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبعدها، وليس ذلك إلا لاتصالها في طبع خلقتها بهذه المرآة، فهي تدركها وتصل إليها بالطفر، لا على قطع الأماكن والحلول في المواضع وتنقل الحركات، وليس هذا لشيىء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يدركان إلا بالمجاورة، والسمع والشم لا يدركان إلا من قريب.

ودليل على ما ذكرناه من الطفر أنك ترى المصوت قبل سماع الصوت

وإن تعمدت إدراكهما معاً، ولو كان إدراكهما واحداً لما تقدمت العين السمع. اهـ[١].

قال أبو عبدالرحمن: ولهذا الحكمي بصمات يعرف بها يكررها عشرات المرات ولا يمل تكرارها مثل الأشفى وهو مثقاب يثقب به الزق، والبزل وهو الثقب، والتجميش، والتشبيه بعين الديك وهو معنى أخذه من الأخطل.

كما أن له بصمات تعتبر من أجزاء أغراض الشعر كطرق بيت صاحب القهوة، وإيقاظه ليبيع ويسقي بعد أن يزيل حثاثه، (وهو بقية النوم في الجفون)، وكاختتامه بعض مقطعاته بأبيات غنائية له أو لغيره:

من اختتامه بشعره هو قوله:

لو كان زهدك في الدنيا كزهدك في
وصلي مشيت بلا شك على الماء

ومن اختتامه بشعر غيره ما تغنى به نديمه راضياً وله الشكر من قول ذي الرمة:

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى
ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

وتارة يُضمِّن من شعر غيره ليحيله عن معناه إلى شاهد للمناسبة كما في قوله:

فلما أن وضعت عليه رحلي
تبدى منشداً شعر امتداح

---

(١) طوق الحمامة/ ضمن رسائل ابن حزم.

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح

وأول ديوان الحكمي ـ بل جله ـ مما يُستحيى منه، إلا أنك قد تجلو الدر من مزبلته كقوله عن تفضيل وصف ليلة القصف على وصف الطلول:

وإذا وصفت الشيء متبعاً
لم تخل من زلل ومن وهم

وكقوله مما يصلح دليلاً على دور الأمهات في السابق في صيانة الأخلاق:

فإذا أطفن بها صمتن لها
صمت البنات مهابة الأم

وأما توبات الحكمي فلا نتألى على الله، والله يعذب من يشاء بعدله وحكمته، ويغفر لم يشاء وينعمه برحمته وإحسانه.

وإنما نفضح فحسب مغالطاته حينما يتكل على عفو ربه، فهو في لحظة وصفه للهو وتمتعه بوقائعه يختم بمثل قوله:

فقد ندمت على ما كان من خطل
ومن إضاعة مكتوب المواقيت
أدعوك سبحانك اللهم فأعف كما
عفوت ياذا العلى عن صاحب الحوت

قال أبو عبدالرحمن: إنما يُطلب العفو بإقلاع وعمل صالح قبل الغرغرة.

أما الاحتجاج على الله سبحانه وتعالى بعفوه عن يونس فقياس مع الفارق شنيع، لأن يونس عليه السلام عبدالله ورسوله، قال الله عنه بعد

قبول توبته: ﴿... فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ المؤمنين﴾ [سورة الأنبياء/ الآية: ٨٨].

فليس ذنب يونس كرمه الله ـ وهو بصدد الدعوة لدين ربه ـ كذنوب الحكمي وهو بصدد حمل أطراف الرداء مع إبليس في الصد عن دين ربه.

أما العمل الصالح فلا يعرف للحكمي عمل صالح يقرب من عمل ضعفاء المسلمين المسرفين على أنفسهم.

أما أعمال يونس فأعمال رسول ولي عابد عليه وعلى نبينا محمد، وعلى سائر الأنبياء والرسل أفضل الصلاة والسلام.

ومن مغالطات النؤاسي قوله:

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة
حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرءاً حرجاً
فإن حظركه في الدين إزراء

قال أبو عبدالرحمن: التحذير من العقوبة والعذاب على الانهماك في المعاصي وترك الواجبات ليس حظراً للعفو، وإنما هو حظر للغرور.

ومع أن النؤاسي هاهنا يرد على إبراهيم النظام في قوله بأن مرتكب الكبيرة مخلَّد في النار: فهو رد غير موفق مادام شاهد الحال السيرة غير العطرة للحسن بن هانيء.

وإنما يكون الرد موفقاً لمرتكب كبيرة وهو ذو محافظة على الواجبات وذو مسارعات إلى الخيرات.

وأما عتقاء الله من النار بعد شفاعة المرسلين والنبيين والصالحين فإنما

ذلك بعد حقب من العذاب لا يعلمها إلا الله، وما جلد في الدنيا على النار بجليد.

وأما أنت يا معالي الدكتور فقل لمن يلومك على الشعر ما قاله الحكمي:

لو كان لومك نصحاً كنت أقبله

لكن لومك محمول على الحسد

تباريح شعرية

في الوقت الذي اطلعت فيه على كتيب من «هم الشعراء الذين يتبعهم الغاوون»؟ للدكتور غازي القصيبي اطلعت على فصول في نفس الموضوع للأستاذ ناصر بن عبدالرحمن الخنين بكتابه «الالتزام الإسلامي في الشعر» الذي طبعته دار الأصالة أغرت عليه من مكتبة أخي حمد بن عبدالعزيز السويلم في عاصمة القصيم الخضرة النضرة بريدة.

وكلاهما أديبان تناولا الموضوع تناول الفقهاء.

وفاتهما نص للإمام ابن حزم في كتابه التقريب لحد المنطق وكان حقًّا عليهما أن يعرِّجا عليه.

وفاتهما مقدمة في جواز نظم الشعر لعبدالله عمر البارودي نشرت بمجلة المعتمد.

فأما الشيخ الإمام ابن حزم فتناول الشعر شرعاً ونقداً فنيًّا من جهة الصدق والكذب إلا أن شواهده الشعرية تدل على أنه أراد الصدق الفني دون الصدق الخلقي.

قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى: هذه صناعة قال فيها بعض الحكماء: كل شيىء يزينه الصدق إلا الساعي والشاعر، فإن الصدق يشينهما فحسبك بما تسمع.

وقال المتقدمون: الشعر كذب.

ولهذا منعه الله نبيه، صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾. [سورة يس/ الآية: ٦٩].

وأخبر تعالى أنهم يقولون ما لا يفعلون، ونهى النبي صلى الله عليه

سلم عن الإكثار منه.

وإنما ذلك لأنه كذب إلا ما خرج عن حد الشعر فجاء مجيء الحكم المواعظ ومدح النبي صلى الله عليه وسلم، وأما ما عدا ذلك فإن قائله إن حرى الصدق فقال:

الليـــل ليـــل والنهـــار نهـــار
والبغـــل بغـــل والحمـــار حمـــار
والـديـك ديـك والحمـامـة مثلـه
وكـــلاهمـــا طير لـــه منقـــار

صار في نصاب من يهزأ به ويسخر منه ويدخل في المضاحك، حتى إذا كذب وأغرق فقال:

ألـــف السقـــم جسمـــه والأنين
وبـــراه الهـــوى فمـــا يستبين
لا تـــراه الظنـــون إلا ظنـــوناً
وهـو أخفى مـن أن تـراه الظنون
قـد سمعنـا أنينـه مـن قـريـب
فاطلبوا الشخص حيث كان الأنين
لم يعـــش إنـــه جليـــد ولكـــن
ذاب سقمـاً فلـم تجـده المنـون

حسن وملح»[1].

قال أبو عبدالرحمن: البيتان الأولان ذكر عنهما ابن سعيد بكتابه المغرب ـ كما في تعليق الدكتور إحسان على التقريب ـ أن ابن هانىء

---

(١) طوق الحمامة/ ضمن رسائل ابن حزم.

الأندلسي لما قدم على جعفر بن علي صاحب الزاب الأوسط وجد بابه معموراً من الشعراء، فخاف أن يحولوا بينه وبين الوصول إليه فتزيا بزي بربري وكتب على كتف شاة هذين البيتين، ووقف للوزير وقال له: أنا شاعر مفلق أريد أنشد الملك هذا الشعر.

فضحك الوزير، وأراد أن يطرف به الملك، فأدخله عليه ليضحك منه، فأنشده قصيدته: أليلتنا إذ أرسلت وارداً وحفا.

فقام إليه جعفر وعانقه وعرف أنه ابن هانىء وخلع عليه.

قال أبو عبدالرحمن: على أن شيخنا الإمام ابن حزم تورط في الكذب الفني مراراً كقوله:

أغـار عليـك مـن إدراك طـرفي
وأشفـق أن يـذيـك لمـس كفـي

ولكنه في خاتمة الطوق أبدى رأيه في الأكاذيب الفنية فقال لمن كتب له الطوق: ولم أمتنع أن أورد لك في الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ويكثرون القول فيها مرفيات على وجوهها، ومفردات في أبوابها، ومنعمات التفسير، مثل الإفراط في صفة النحول وتشبيه الدموع بالأمطار وأنها تروي السُّفَّار، وعدم النوم ألبتة، وانقطاع الغذاء جملة، إلا أنها أشياء لا حقيقة لها، وكذب لا وجه له، ولكل شيىء حد، وقد جعل الله لكل شيىء قدراً.

والنحول قد يعظم ولو صار حيث يصفونه لكان في قوام الذرة أو دونها، ولخرج عن حد المعقول.

والسهر قد يتصل ليالي، ولكن لو عدم الغذاء أسبوعين لهلك.

وإنما قلنا إن الصبر عن النوم أقل من الصبر عن الطعام لأن النوم غذاء

الروح، والطعام غذاء الجسد، وإن كانا يشتركان في كليهما ولكنا حكينا على الأغلب.

وأما الماء فقد رأيت أن ميسوراً البناء جارنا بقرطبة يصبر عن الماء أسبوعين في حمارة القيظ ويكتفي بما في غذائه من رطوبة.

وحدثني القاضي أبو عبدالرحمن بن جحاف أنه كان يعرف من كان لا يشرب الماء شهراً.

وإنما اقتصرت في رسالتي على الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلاً، وعلى أني قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يُكتفى بها لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم[١].

ثم عاد أبو محمد في التقريب يقسم الشعر فنيًا، ويبينّ أن الشاعرية جبلة وليست كسباً ليتقي قابلية الشاعرية للتكليف الشرعي، إذ لا حكم للشرع فيمن ولد أعمى إلا أن يحتسب إذا بلغ سن التكليف كما أن المبصر يشكر[٢].

قال أبو عبدالرحمن: والشاعرية تشكر ولا تكفر، وتوظف فيما يرضي الله.

يقول أبو محمد ابن حزم بالحرف الواحد: ولكنا نتكلم فيه بمقدار ما يحسن فنقول: الشعر ينقسم ثلاثة أقسام: صناعة، وطبع، وبراعة.

فالصناعة هي التأليف الجامع للاستعارة والإشارة، والتحليق على المعاني والكناية عنها، ورب هذا الباب من المتقدمين زهير بن أبي سلمى، ومن المحدثين حبيب بن أوس.

---

(١) طوق الحمامة/ ضمن رسائل ابن حزم.

(٢) التقريب/ ضمن رسائل ابن حزم.

والطبع هو ما لم يقع فيه تكلف، وكان لفظه عاميًّا لا فضل فيه عن معناه، حتى لو أردت التعبير عن ذلك المعنى بمنثور لم تأت بأسهل ولا أخصر من ذلك اللفظ، ورب هذا الباب من المتقدمين جرير، ومن المحدثين الحسن.

والبراعة هي التصرف في دقيق المعاني وبعيدها، والإكثار فيما لا عهد للناس بالقول فيه، وإصابة التشبيه، وتحسين المعني اللطيف، ورب هذا الباب من المتقدمين امرؤ القيس ومن المتأخرين علي بن العباس الرومي.

وأشعار سائر الناس راجعة إلى الأقسام التي ذكرنا ومركبة منها.

وأما من أراد التمهر في أقسام الشعر ومختاره وأفانين التصرف في محاسنه فلينظر في كتاب قدامة بن جعفر في نقد الشعر، وفي كتب أبي علي الحاتمي ففيهما كفاية الكفاية والتوسع والإيعاب لهذا المعنى.

وكون المرء شاعراً ليس بالاكتساب، ولكن بالجبلَّة إلا أنه يقوى صاحبها بالتوسع في قراءة الأشعار وتدبرها[1].

قال أبو عبدالرحمن: غير مسلم لأبي محمد ابن حزم تمثيله بالشعراء لاسيما زهير بن أبي سلمى فإنه من شعراء الطبع وليس من شعراء الصنعة.

وأصحاب الحوليات يقولون بالطبع، ثم يحسنون بعض الطبع بالصنع، فلا ينفي ذلك شاعرية الطبع.

أما البارودي فقد سجع لمقدمته باستفتاح على طريقة خطب المخضوبي رحمه الله تعالى.

ولم يوفق في الاقتباس وأساء الأدب في قوله: فخلف من بعدهم خلف

---

(١) طوق الحمامة/ ضمن رسائل ابن حزم.

أضاعوا الأدب، وهربوا منه هروب العرب من الجرب.

ثم قال في عتابه للخلف:

عن الخير موتى ما تبالي أزرتهم
على طمع أم زرت أهل المقابر

ولم يبق في حفظهم عنه إلا قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [سورة الشعراء/ الآية: ٢٢٤].

ولو كانوا من أصحاب الفطن والأفكار لأذعنوا أن قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ من العام المخصوص بالكفار، بدليل الاستثناء بعده الذي هو للعموم معيار.

ومما يدل على تخصيصه أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا معدن الشعر ومنبعه، وكان أشعرهم الخلفاء الأربعة، وكان أشعر الخلفاء الصديق الأكبر، والكبريت الأحمر، ثاني اثنين في الإسلام والعريش والغار والضريح، ومن ثبتت صحبته في القرآن بالنص الصريح، واختاره النبي صلى الله عليه وسلم لأمر الدين في حياته، فكان أحق الصحابة بالخلافة بعد وفاته، وشيد الله به الدين أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً.

قال أبو عبدالرحمن: وراح البارودي يبتدع صفة الشاعرية للخلفاء الراشدين وعدد من الصحابة حتى عد العباس وابنه عبدالله ومعاوية رضي الله عنهم شعراء.

وهي صفة يجهلها الخلف لأنه لا وجود لها في السلف.

وفي الاحتجاج قال البارودي: فإن قيل قد قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [سورة يس/ الآية: ٦٩]، فالجواب أن ذلك نزل ردًّا لقول من يقول: إنه شاعر، وأن القرآن شعر.

فأخبرهم تعالى أنه كلام قديم وليس بشعر حادث ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل على ترتيله وتبليغه ، ومن كان مقبلاً على الكلام القديم لا ينبغي له الإقبال على كلام حادث .

فظهر بهذا أن قوله تعالى : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ غير ذم للشعر ولا غض منه ، كما أن كونه صلى الله عليه وسلم أميًّا غير ذم للكتابة ولا غض منها .

كيف وقد كان يحث حسان بن ثابت على إنشاد الشعر وهجو المشركين ويقول : إنه أنكى لهم من وقع الحسام ، وكان يستنشد أصحابه الأشعار .

وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم حقن بالشعر دم كعب بن زهير بعد الإهدار ، وأنه أجاز حسان بشيرين القبطية جاريته ، وأجاز كعب بن زهير بمئة من الإبل ومنَّ عليه ببردته ، وقد اشترى تلك البردة منه معاوية بثلاثين ألف درهم . وكانت عنده من أجلِّ ملكه وأعظم ، وكان خلفاء بني أمية يتبركون بلبسها في الأعياد والمواسم ويعدونها أفخر لباس .

حتى وصلت مع الدولة لبني العباس .

وحسب الشعر مدحاً وشرفاً قول النبي صلى الله عليه وسلم : «إن من الشعر لحكمة» .

ولذلك تنافست الأفاضل في إنشائه سلفاً وخلفاً ، فإن قيل كيف قال الإمام الشافعي رضي الله عنه :

ولـولا الشعـر بـالعلمـاء يـزري

لكنـت اليـوم أشعـر مـن لبيـد؟ !

فالجواب أنه ليس مراده أن إنشاء الشعر يزري بالعلماء ، وإنما مقصده أن التفرغ له وحده بحيث يعرض العالم به عن غيره من العلوم الدينية

كالأصول والفروع الفقهية مما يعد نقصاً في مقامه ومخلاً بتوقيره واحترامه، إذ لو كان مقصوده رحمه الله أن نظم الشعر يزري بالعالم لما تعاطى هو إنشاءه، لأنه قد ثبت أنه قيل له: لم لا تشرب النبيذ؟.

فقال: لو علمت أن شرب الماء يخل بمرؤتي لتركت شربه.

وقد وقع الإجماع أن الشافعي كان أشعر أهل عصره لما روي أن العباس الأزرق شاعر عصره جاء إليه فقال له: يا أبا عبدالله إننا قد تركنا لك الاجتهاد والفقه والحديث ولم نشاركك فيها، ونراك قد شاركتنا في الشعر، وقد نظمت أبياتاً إن أجزت لي مثلها لأتوبن عن قول الشعر ما بقيت.. فقال له الشافعي رحمه الله: إيه فأنشأ يقول:

ما همتي إلا مقارعة العدى
خلق الزمان وهمتي لم تخلق

والناس همتهم إلى طلب الغنى
لا يسألون عن الحجى والأولق

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني
بنجوم أقطار السماء تعلقي

لكن من رزق الحجى حرم الغنى
صنوان مفترقان أي تفرق

فلما فرغ من إنشائه قال الإمام الشافعي رحمه الله مرتجلاً:

إن الذي رُزق اليسار فلم يصب
حمداً ولا أجراً لغير موفق

فالجد يدني كل أمر شاسع
والجد يفتح كل باب مغلق

فـإذا سمعـت بـأن مجـدوداً حـوى
عـوداً فـأثمـر في يـديـه فصـدق
وإذا سمعــت بــأن محـرومـاً أتي
مــاء ليشربــه فغــاض فحقــق
وأحــق خلـق الله بـالهـم امـرؤ
ذو همـــة يبلى بعيـــش ضيـــق
ومـن الـدليـل على القضـا كـونـه
بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

فلما سمع الأزرق إنشاءه تاب عن قرض الشعر .

قال أبو عبدالرحمن : تأويل البارودي لقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ﴾ لا يعجبني ، وسأرحمكم وأرحم نفسي من السبح في القدم والحدوث .

وكل كلام حادث فيه حق وباطل ، وخير وشر ، وجمال وقبح .

والله لا ينهى عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم عن الإقبال على الحق والخير والجمال ، وإنما ينهاه عن أضدادهن .

وإنما التأويل الذي نعتقد أنه الحق مضفر من عناصر :

أولها : أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربه ذكر وقرآن مبين .

فهو معصوم خالص للحق والخير والجمال لا يأتيه الباطل .

وثانيها : أن الشعر صنعة بشر ، وأن القرآن ليس من صنع البشر ولا من علمهم .

وثالثها : أن الشعر فيه حق وخير وجمال ، وفيه أضدادهن .

ورابعها: أن الأضداد في الشعر أكثر.

وخامسها: سبب غلبة الأضداد في الشعر غلبة الباطل في الشعراء، لأنهم كما قال سيد قطب: أسرى الانفعالات والعواطف المتقلبة.

ولهذا صان الله نبيه عن أن يكون شاعراً، لأن غلبة الفساد في مناهج الشعراء جعلت للشاعر والشعر مدلولاً لغويًا عرفيًا غير مشكور.

وسادسها: الآية خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبكتاب الله.

ومهما بلغ الشعر والشاعر من الحق والخير والجمال، فأنى لنا أن نسويهما بالرسول والقرآن؟!.

فلحن الآية المتعلق بعموم القوم والقول ـ بعد استثناء الرسول والقرآن ـ المنع من التسوية.

فأين في الآية تحريم الشعر وذم الشاعر بإطلاق؟!.

وسابعها: لو صح أن في الآية هجاء للشعر والشاعر ـ وهو لا يصح ـ لحمل إطلاق الهجاء على مقيده في القرآن والسنة، لأننا من نصوص الشرع في الشعر (إباحة وحظراً) نستخلص التقعيد للمباح والمحظور مع استحضار ملمح أبي محمد ابن حزم أن الشاعرية طبع غير كسب.

وثامنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ لا يعني تقبيح الشعر لذاته، بل يعني أمرين:

أولهما: ما أسلفته من أغلبية الباطل في الشعر مما اكتسبت به هذه الكلمة مدلولاً عرفيًا غير مشكور.

وهذا نقص يتنزه عنه تعليم الله وتنزيله.

وثانيهما: أن الشعر وإن خلا من كل المعايب وأفعم بالمحاسن فهو لا ينبغي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إعجازاً لا هجاء، لأن الشعر طبع بشري، فتتوهم النفس أن من قدر على الشعر قدر على القرآن.

قال القرطبي: جعل الله ذلك ـ يعني عدم الشاعرية ـ علماً من أعلام نبيه صلى الله عليه وسلم، لئلا تدخل الشبهة على من أُرسل إليه، فيظن أنه قوي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر[1].

قال أبو عبدالرحمن: وحينئذ فامتنان الله على نبيه بعدم الشاعرية كامتنانه عليه بعدم الكتابة.

---

(١) تفسير القرطبي.

هموم سلوكية وعقيدية

تباريح فنية

نشبت مرة في اللواء أبي محمد سعيد بن محمد أبو ملحة أكرر عليه أسئلتي الحائرة عن المطربة بنت إبراهيم أم كلثوم: ما رأيك في مثل هذه: هل نغلّب في حقها جانب الرجاء لها، أو الخوف عليها؟!.

وأسترسل أحياناً في السؤال بما يشبه أسئلة العوام، وأمنّي نفسي فأقول: لا يأس من رحمة الله، وأن عصاة المؤمنين يدخلون الجنة لا محالة.

وأشد على أصابعي وأعبطها من غير وعي وأناجي نفسي من غير شعور فأقول: والله إن كانت مجتنبة الكبائر كما يُشاع، ولم تضيع الصلاة فستلقى جواداً كريماً، وبرًّا رحيماً سبحانه.

وقد حسب اللواء سعيد أن هذا الصنيع مني مما يسميه الفصحاء سذاجة، ويسميه العوام صُحًّا ـ بضم الصاد المهملة، وتشديد الحاء ـ.

وليس والله سؤالي اللاشعوري من هذا القبيل، وإنما أشكر ربي على رهافة حس ـ وإن كانت تؤلمني أحياناً ـ.

قال أبو عبدالرحمن: وربما قمت من النوم قبل استكماله، فغرقت في التفكير في أمور لا تعنيني ولا سبب لها إلا رهافة الحس حينما أذوب إعجاباً بالمجد الدنيوي الذي حققه علم من الأعلام ثم يقفز إلى ذهني ما يُخاف عليه من مصير أخروي، فيكون كل ذلك المجد الدنيوي كحلم ليل فارغ.

كنت منذ أشهر ـ آخر عام ١٤١٣هـ ـ في رحلة سمو الأمير خالد الفيصل شمال منطقة عسير، وكنت مع الأستاذ محمد بن عبدالله الحميد في خيمة واحدة في ليلة مطيرة باردة، وكان مع الحميد جهاز راديو صغير

نسمع عليه أخبار لندن، فأخذنا النوم معاً.

وبعد سويعة أيقظني ما يوقظ الشيخ في الشولة والنعائم!!.

ثم عدت وأنا أسمع «هلت ليالي القمر»، وكان لي أربعة عشر عاماً لا أسمع طرباً، وخيِّل إلى أن مخيماً بعيداً عنا فيه فيديو أو تلفاز، وكان كل جزء مني مصغياً على الرغم مني لحلاوة الصوت، وحلاوة الشعر، وسلامة الحروف والمخارج، ولطول عهدي عن منسي الشجن!!.

وكان يتراقص في أذني «تعال نسهر سوه في نور بهاه»، فأذكر توثب الجمال الطبيعي للعشاق إذا أرسل البدر خطوطه الذهبية حانياً، مع التهدج المحلق المتلاعب بمدَّة «بهاه».

فقلت في نفسي: هل أسد أذني حتى لا أحن للإلف القديم؟!.

أم أذهب بعصاي أتتبع الصوت وأطلب من مطلقيه خفضه؟!.

فوقع الخيار على أن أعصب رأسي بغترتي، وأمرها على أذني، وجددت وردي، فأحسست أن بيني وبين الصوت أشباراً فقط، وإذا الصوت يسترسل من جهاز الراديو على فراش الحميد، والحميد في سابع نومة أخذه النعاس خلال الأخبار، فقمت وأغلقته والشادية في ألقها.

وفككت العصابة، واستلقيت على ظهري، وأصابع رجلي تحفر الفراش، وعينا ركبتي تستقبلان السماء، وسرحت في فكر عميق كتفكير ابن طفيل عندما أذن الفجر وهو يحاكم حجج المؤمنين وشبه الكافرين، فقال بيتيه المشهورين:

برَّح بي أن علوم الورى

ثنتان ما إن فيهما من مزيد

حقيقــــة يُعجــــز تحصيلهـــــا
وبـــاطـــل تحصيلـــه مـــا يفيـــد

لقد قفز إلى ذهني فيلم «وداد» وأول ما رأيته منذ خمسة وثلاثين عاماً بحي المنيرة بالظهران أو أكثر.

رأيت ريفية مجدولة الرأس، خضراء، صبية، ريانة العود، ذات أربع ضفائر كبنيات قريتي في زمان مضى وانقضى بسلام، حلوة الصوت، فصيحة النطق، مبهورة بهذا المجد السينمائي!!.

ومر الشريط منذ الصبى والمخدع الريفي المحافظ إلى أن كانت ذات منديل لو حركته لشذا كما قال ضياء الدين رجب رحمه الله تعالى!.

إلى أن طعنت في الشيخوخة فكانت تقول: «يا مثهرني» بدل «يا مسهرني»!.

إلى أن ماتت بين شاعر وعوَّاد!.

قفز إلى ذهني خلال هذه العقول كل أمجاد الدنيا التي نالتها من بعد الصيت، والمال، والجاه.

كان أحمد شوقي بشموخه يهرول ويفتح خطاباً ناوله إياها فرمته عليه تحسب أن فيه ريبة.. فإذا هو يقول للناس: والله ما في الخطاب إلا هذه القصيدة: حمامة الأيك من بالشدو طارحها.. إلخ.

تمر هذه الأمجاد الدنيوية بذهني وأعادلها بهول اللقاء عندما أسلمت الروح إلى باريها وأنا بمشاعر الحب والشفقة، لأن من أحب أحداً خاف عليه.

فمرة أمني نفسي وأتعلل فأقول: يذكر لها عبادات وصلوات وصدقات، وهي تجتنب فحش الكلمة.

وتارة أعض إبهامي وأقول: الأمر أخطر، فهناك لهو ينفق له ربيع الوقت، وسفور، وإحياء صالات تغص بكل أحجل وأطوق، وبالروائح الكريهة.

وهناك تميع الأمة بأنت عمري.. خذني لحنانك.. يا ظالمني.. هجرتك.. على بلد المحبوب.. مع الصفير وترقيق القلوب لهموم الدنيا، ونسيان لحظة من يوم النشور.. حتى كانت قلوب القوم لهموم الدنيا الوجدانية كأفئدة الطير رقة وصعقاً!!.

كان أوتبيس ديوان الموظفين العام ـ الخدمة المدنية حاليًا ـ يوم كان جناحاً بوزارة المواصلات يأخذنا للعمل، فيمر على البيوت.. فواحد يخرج من باب الدار يضرب بأصبع على أصبع يردد:

بعيد بعيد عن الوجود وابعدني!.
وآخر يقفز على سلم الأتوبيس يردد:
ما تصبرنيش!.

وآخر يلقي غترته ويمد رجليه على ماصته في وقت انقطاع من المراجعين، فيلحن تقليداً:

يا فؤادي.. هذه ليلتي!.
يا حبيباً زرت يوماً أيكه!.
والنؤاسي عانق الخياما!!.
.. ولا قصر في الأعمار طول السهر!.

يعرفون كل شيء عن السنباطي، ولا يعرفون شيئاً عن أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري!.

ولو جمعوا بين الأمرين لاعتدل الحمل!!.

قلت خلال هذه الأشجان: لو أن هذه الخضراء الريفية الصبية في وداد تزوجت ريفيًّا ذا مروؤة ودين يتعاونان على الكدح والبر والتقوى، ويلحسان القصعة.. لم يكشف لها وجه، ولا عمر بها مجلس طرب.

أو كانت بغلالتها وسجادتها تحفظ أدباً، وترتل قرآناً بصوتها الحلو، وتروي وتملي علماً وأدباً ودعابة وترنماً ساذجاً وهي محجبة كمحدثات المسلمين: لكان خيراً من كل تلك الأمجاد، ومن كل ذلك الألق.

وتذكرت محمد عبدالوهاب وهو من أعقل الناس دنيويًّا لم يتعاط ما تعاطاه الفنانون التعساء مما يؤذي أجسامهم، وكان حافظاً لدنياه، وكان يعرف من أين تؤكل الكتف، وكان نديم الملوك والباشوات والأمراء.. نال مالاً وجاهاً ورفعة.. واستمتع في شبابه وكهولته بمتع الحياة دون أن يرهق جسمه.. ربما تغدى في القاهرة وتعشى بباريس دون كثير استعداد!.

وكان من أعذب عباد الله نبرة إذا تحدث، وكان أديباً ذواقاً.

وخوفي عليه أكثر من خوفي على صاحبة الأطلال، فما قيمة تلك الأمجاد الدنيوية إذن؟!.

وأمر آخر يتعلق بالحس المرهف، وهو أننا في أول اعتكاف لي بمسجد الأمير بندر بن محمد بن عبدالرحمن واصلت التلاوة، فكان الذي التحم بذاكرتي من التلاوة هلاك الأمم.

تصورت هلاك قوم لوط إذ حل بهم الأمر مشرقين، وقد مرت رسل الله تخبر إبراهيم الخليل بذلك.

وأكثر ما خايل لي قوم هود وصالح عليهما السلام.. ثمود أخذوا بالصيحة صاعقة العذاب، وعاد أخذتهم الريح الصرصر في الأيام

النحسات فكانوا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. . جاءهم العذاب ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . [سورة الأحقاف/ الآية: ٢٤].

فكنت أتصورهم وأتصور أجسامهم في الحجر والأحقاف، وأصابني مثل الوحشة أياماً خوفاً وشفقة وعبرة.

وكان كل من جلس عندي في المسجد من خالص أصدقائي أحرجته بالأسئلة.

لماذا لما رأوا العارض لم يتذكروا تخويف رسول الله لهم وإنذاره إياهم!؟.

لماذا لم يلجأوا إلى التوبة كما فعل قوم يونس فيكشف عنهم؟!.

وأحياناً يدخل علي إبليس لأشفق عليهم، ومن ثم تزداد أسئلتي.

وقد ظن بي بعضهم الوسوسة.

ولم يعتدل مزاجي ويذهب خوفي ووحشتي إلا بعد أيام، وبعد أوراد وتحميد وتسبيح وتقديس.

تبريحة سلوكية

ترك الدخان وراحة الاعتكاف

قال أبو عبدالرحمن: وقصة الاعتكاف هذا أنني قضيت فتوتي ويفاعي وجزءاً من كهولتي تحت نير عام ١٩٥٢م.

وقد أوضحت في مناسبات كثيرة ملامح فترة ذلك النير وهمومه وأعباءه.

وورثت من هموم ذلك الجيل عادة التدخين التي عافاني الله منها بآخرة وله الحمد كثيراً.

وقعت فيه عابثاً لرداءة الجليس، وسرعة تكوين العادة، وصعوبة التخلص منها.

وكنت أيضاً في حالة غضب ومشاجرة فنبزت مدخناً بالتدخين وعيرته به في محفل فعوفي منه فترة ما وبليت.

ولو تهزأ بأخيك في رضاع كلب لرضعته.

وجربت أن الذين يستسهلون عادة التدخين ويجعلونها دون مرتبة الحرمة مضللون بصيغة اسم المفعول والفاعل معاً.

جربت أن تلاوة كتاب الله وحفظه وتدبره مطلب شريف نفيس ترد عنه عادة التدخين.

وربما ضرب المدخن أسنانه بالفرشة ثم السواك ومس طيباً أو بخوراً ليقرأ القرآن، ولكنه فيما بين خمس دقائق أو عشر دقائق يحن إلى إشعال سيجارة فيطبق المصحف، ولن يعاود التلاوة إلا بعد فترة طويلة؛ لأنه لن يستخدم الفرشة والطيب في كل ربع ساعة!!.

وربما صام المدخن يوماً تطوعاً، ولكنه عند أذان المغرب يأكل تمرة على عجل، ويرشف مجة قهوة على عجل أيضاً، وليس ذلك من أجل أن يلحق الصلاة المكتوبة، وإنما غرضه أن يستلقي ويسترخي ويشعل سيجارة إثر سيجارة بنهم شديد، ويلغ في الشاهي بنهم، وبئس العشير السيجارة والشاي.

ثم يقوم للصلاة متثاقلاً في بيته بعد إغلاق أبواب المساجد، فاعجبوا أيها القوم لصيام تطوع وصلاة في البيت!!.

وجرَّبت أن المدخن لا يذهب إلى الصلاة جماعة إلا نادراً بعد مؤونة شديدة من تغيير الملابس والفرشة والتطيب والاشتغال بقرض حب هان أو مسمار (عويدي) أو نعناع.

وجربت أنه إن ذهب لصلاة الجماعة لا يمكن أن يتقدم مع الآذان أو قبيله.

وجربت أنه لا يمكن أن يتأخر في المسجد بعد المكتوبة للاشتغال بنافلة أو ورد.

وجربت أنه في وحشة من أهل الخير والصلاح يختلق المعاذير للابتعاد عنهم إن دعوه لزيارتهم، ويتباعد بحذر أن يطأوا بساطه!!.

وجربت أن المدخن إذا دخل المسجد دخله كالسارق لا يلج المسجد إلا بعد يقينه بأن المؤذن أقام الصلاة ثم يندس آخر الصف ويهرب من المسجد بعد التسليم مباشرة وقلما تنفل في بيته!!.

ومرت بي مواقف أسهل منها الخسف والقصف!!.

فمرة كنت في خدمة بعض الأشياخ العوام من أعيان بعض القرى أسعى إلى تسهيل مهمتهم من خلال عملي مديراً عامًّا للإدارة القانونية

لعلمي بعدالة مطالبتهم ووضوح حقهم وطيب نيتهم.

وكانوا بلحاهم الجميلة البيضاء يقبلون رأسي في الذهاب والإياب ويدعون لي.

وذات صباح يوم مبارك كنت في مكتبي غائباً في تفكير عميق، وكنت أشعل سيجارة من عقب أخرى!!.

وما وعيت إلا بالقوم قد أخذ بعضهم مقعده من المكتب، فذهلت عن رد السلام، وتمنيت لو انشقت الأرض من تحتي، فسللت نفسي منهم إلى مكتب آخر واتصلت تلفونيًا بالسكرتير، وأعلمته أن معاملة القوم لدى الناسخ فأحضرها إلي ووقعتها، وطلبت منه أن يتابعها إلى الصادر العام ويعطيهم الرقم النهائي.

أما أنا فقد ذهبت إلى بيتي ولسان حالي يقول لأهلي: دثروني دثروني!!.

فقضيت نهاري في تناوم وضيق صدر!!.

وقضيت عاماً ونصف عام خلال عام ١٣٩٧ و١٣٩٨هـ محامياً في بريدة فوفقت مع سماحة الشيخ صالح الخريصي على اقتراحات تنهي بعض القضايا دون مرافعة، ونالت موافقة مرجعي بحمد الله وحلت القضايا من جذورها.

وفي ترددي على المحكمة تعرفت على بعض الفضلاء والأعيان كرجل الأعمال الوجيه صالح السلمان وكان يومها في بداية توجهه، وكانت منطقة الفائزية في بداية التأسيس.

وفوجئت بدخوله وأنا مع بعض الزملاء في أحد المحلات والسيجارة في بداية اشتعالها فبادرت إلى وطئها بقدمي، وللحظ المبارك كانت السيجارة بين قدمي العارية وطرف عباءتي الثمينة فأحرقت العباءة حرقاً

يعيبها وكوت قدمي، ومع هذا فلم أنستر، بل تجاهل تجاهل العارف.

قال أبو عبدالرحمن: ونحن الآن في آخر عام ١٤١٢هـ وقد رمقت صالح السلمان في مقبرة بريدة ونحن نشيع أخاً صديقنا غانم الغانم رحمه الله وألهم أهله الصبر والسلوان، فلذت عنه وأخفيت نفسي أن يرمقني لخجلي من ذلك الموقف الذي مر عليه أربعة عشر عاماً، وإن قلبي ليحن إلى مقابلته وتشجيعه على مواقفه الكريمة لما أسمع عنه من ثناء عاطر.

ولكنه ذل المعصية!!.

قال أبو عبدالرحمن: وليست تباريحي هذه كاعترافات النصارى التي ترفع جانب التحفظ، فإنني أستعيذ بالله من ذلك، وأنا أول العائبين على مثل رسل وجورج صاند!!.

ولكن هذه التباريح تجربة مقصر ظلم نفسه في بعض الأحيان ولم يمت قلبه، فلما فاء الله بي كنت ممن جرب عز الطاعة وذل المعصية، فضفرت من بعض تجاربي مرائر يستمسك بها القراء للعظة والذكرى.

أسأل الله العفو عما مضى، وأستمنحه العصمة فيما بقي.

والاعتكاف المذكور سببه أن صحتي تدهورت تدهوراً مروعاً، فكانت سحنتي كسحنة أهل القبور: صفرة في الوجه، وعري في الوجنات، وسعة في الفم، وفحيحاً وسعالاً وإضراباً عن الأكل في بعض الأحيان.

فإذا أصابتني وعكة بسيطة خيِّل إليَّ أن فيها أجلي، فأفزع فزعاً شديداً خوفاً من لقاء الله فأغير ملابسي وآمر بغسلها وتطييبها وأجدد التوبة، وأتنفل ولا أقعد إلا على طهر!!.

وما رأيت أحداً يخاف الخوف الشديد من الموت إلا العاصي المقصر.

وفي يوم ١٩/ ٩/ ١٤٠٥هـ تقريباً كنت أتصفح المحلى للإمام ابن حزم،

وقد أطبقته في ضيق صدر وحرج شديد آيساً من الإقلاع عن التدخين موقناً بأنني سأقضي حياتي مدخناً لا قدرة لي على الإقلاع.

وسبب هذا اليأس أن لي في كل أسبوع توبة وعودة، وكثيراً ما حطمت الولاعة ومزقت العلبة، ثم تجبن نفسي فأخرج الساعة الواحدة من الليل أبحث عن بائع يُشرع بابه.

وكلما أقبل شهر رمضان المبارك ترقبته باستعداد لتوبة نصوح، ولكنني أزداد نهماً، فأطيل السهر، وأكثر من المنبهات فيما بين الفطور والسحور لأعوض عن حرمان النهار.

وإن حملت طفلاً من أطفالي على كتفي وصعدت درجتين من السلم جعلت أستريح من شدة العناء!!.

ومن أسباب اليأس أنني كنت أتردد على الأسياح صحبة الوالد الكريم ذي المناقب والإيثار أبي نائف سليمان الفالح في مهمة رسمية، وكنا نسمر عند أمير الأسياح السابق الشيخ عبدالعزيز السديس أبي علي، وكنت أكثر التردد على الحمام لأتوارى بسيجارتي عن الأعين، فلما أحس أبو علي بذلك أحضر لي صحناً (طفاية) وأذن لي بالتدخين، وصار يتخولني ببعض الكلمات كقوله:

والله إن الدخان لم يزرع لأمثالك!!.

والله إن السيجارة لا تليق بمثل هذا الوجه الصبيح واللحية المباركة!!.

ويقسم أبو علي أن لي هيبة ومحبة في قلبه، وأن تدخيني صدمة له!.

وذات مرة زحفا إليَّ أبو نايف، وأبو علي، وحصراني في زاوية وعزما على تركي له فأقلعت عنه في حدود عشرة أيام، ومنذ غادرت الأسياح عدت إليه.

ومرة سافرت إلى المغرب في العشر الأخيرة من رمضان صحبة أخي الدكتور يحيى محمود ساعاتي في مهمة رسمية ومع كل واحد منا زوجته، فتركته عازماً في السبع الأخيرة من رمضان وأيام العيد، ثم عاودته في الطائرة أثناء عودتي للرياض.

وفي عام ١٤٠٠هـ كنت صحبة الأستاذ عبدالرحمن الشثري وعبدالقادر حمودة إلى الطائف لمقابلة فنان عربي كبير جاء زائراً، فكنت أنزل في الصباح الباكر إلى صالة الفندق فأفطر وأشعل السيجارة وأشرب الشاي بنهم، ثم أجدد الوضوء وأستعمل الفرشة وأستاك، وأردد حفظي من القرآن وأراجع المصحف.

ثم أعود للتدخين وأطلب شاياً، ثم أستعمل الفرشة والسواك والطيب وأعود إلى المصحف.

وكان هذا ديدني إلى الظهر، فلما لاحظ الأستاذ عبدالقادر ذلك وعرف السبب قال: أتركه يا أخي. . أين عزيمة الرجال!؟.

فتركته يومين ثم طلبت منه سيجارة واحدة!!.

فتعجب وقال: أين الإقلاع؟!.

فقلت: أنا على إقلاعي، وإنما أريد واحدة حتى لا أشعر نفسي بالحرمان!!.

فعجب من التلاعب باللغة، وقال: هل التوبة إلا الحرمان من الشر؟!.

المهم أن اليأس استحوذ على قلبي، فعلم الله عجزي وهمي فرحمني وهيأ لي أسباب التوبة وأعانني، فله الحمد كثيراً.

لقد عدت إلى تصفح المحلى فوقعت عيني على باب الاعتكاف فرنت في أذني صيحة تقول: قف وتأمل!.

فتذكرت أن الاعتكاف فرار إلى الله وانطراح بين يديه، وبراءة من الحول والقوة إلا به.

فقلت في نفسي : أعتكف آخر نهار غد ١٤٠٥/٩/٢٠هـ فأمرت بغسل ثيابي وتطييبها، وحملت حقيبتي إلى مسجد الأمير بدر بن محمد بن عبدالرحمن الذي يؤمه الشيخ محمد بن زنان بمسجد سلطانة، فدخلته، وقد بقيت ساعة على غروب الشمس، واشترطت على نفسي أن لا أخرج إلا للوضوء وتغيير الملابس فقط .

وبقيت عشرة أيام بلياليهن إلى صباح يوم العيد، فخرجت من المسجد إلى مصلى العيد، ومنه إلى البيت .

فأما النهار فأقطعه بالصيام والتلاوة والدعاء، وأما الليل فأقطعه بالتراويح والقيام ومناجاة الرب سبحانه وتعالى، ومذاكرة بعض الشباب في تفسير ابن كثير والشوكاني .

ولقد نزلت علي سكينة ما عهدتها في حياتي قط، وإن أعظم وقت لإخواء الرأس إلى سيجارة فترة الإفطار وقبيل السحور، فما دف قلبي بحمد الله إلى هذه العادة، ولم أفكر فيها مدة بقائي في المعتكف .

وبعد خروجي من المعتكف لاقيت بعض العناء، وهممت بالعودة إلى التدخين، وما منعني إلا الحياء من الرب ثم من الأهل والأصدقاء .

وإنني الآن لأتقزز من رائحته، وأعجب من قبول نفسي له في سنوات خلت، فلله الحمد كثيراً .

ووجدت أعظم عون على الإقلاع من المعصية الاعتراف للرب بها، والانطراح بين يديه بالدعاء وطلب العصمة .

ووجدت أن كراهية لقاء الرب كلما خايل شبح الموت تنسحب رويداً رويداً بالتخلص من المعصية والتقرب لله بالطاعة ! ! .

ولقد كثرت ظاهرة الاعتكاف بين الشباب بعد ذلك العام المبارك، وفي

العام الثاني اعتكفت في نفس المسجد ورافقني الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد بن يحيى.

ثم اعتكفت سنتين بمسجد سلطانة المجاور لبيتي الذي يؤمه الشيخ محمد بن سعيد، ولكن معتكفي اتسع لحديث الدنيا.. بل لبعض اللغو والنكت فتوقفت إلى معاودة اعتكاف خالص.

وها هنا ظاهرة عجيبة وهي أن قلبي يرق وينفتح ويرفرف عند ثنتين:

أولاهما: إذا سمعت صوت الشيخ ناصر بن بخيت مؤذن أول مسجد اعتكفت فيه.

وثانيهما: إذا رمقت مكان معتكفي شرقي المسجد.. بل إنها لتخنقني العبرة، فالله المستعان وبه الاعتصام وله الحمد واصباً.

والحمد مدح الله وشكره معاً.

وعادة التدخين تكونت من عهود عقود نفض غبارها الأستاذ مشعل السديري الذي يختفي سنين ثم يطل أشهراً.. ثم يختفي سنين يرنق فيما وراء سهوبنا كطيور الماء، فإذا عاد إلينا أشهراً حلق علينا تحليقة الأجدل!.

وهذه المرة صمد مع العكاظيين ينفض غبار الحقب ويحاسب أبناء العصر، وكنت ضمن قائمة العرض في الحلقة الثانية من مكاشفاته بعنوان «القراء يكتبون ونحن نعلق»[١].

ترحم عليَّ ابن أبي زيد رحمه الله تعالى كما يترحم على الأموات، لأنه افتقدني فنيًّا وأدبيًّا، وأحس أن عصري تجهم لي فتجهمت.

قال أبو عبدالرحمن: وذلك منذ أزيد من عشر سنوات حيث بدأت الصحوة.

---

(١) جريدة عكاظ عدد ٩٧٢٨ في ١٤١٣/٩/٢٤هـ.

بقايا عهد سلمت براجمه من الأوخاز

وكان الأستاذ مشعل السديري والأستاذان الشريفان علوي الصافي وعبدالله الجفري ممن طرقوني بشواكيشهم قبل الصحوة بسنوات إذ كان الحديث عن الأوراق الصفراء، والآن ترحموا علي وذكروني بخير، لأنهم وجدوا عصراً متخثراً!!.

ومن ثم عادوا لمظلومهم يقولون:

ألهذا الحد أصبح طوق الحمامة مخيفاً؟!.

أو: أبو عبدالرحمن مشروع لعالم فنان!.

قال أبو عبدالرحمن: مشعل وآل مشعل عندي بالعين الجليلة، ولا أذكر أنني كدرت له صفواً إلا مرة قلت له مدافعاً عن نفسي: «وأنت يابن السدارى».. كأنني يومها ظلمته، وكأن معنى القول: أنت بغيرك لا بنفسك.

وقد اكتشفته شعلة ذكاء وديدبان مطالعة!!.

وكتبت مرة عن «العرب ظاهرة صوتية» قبل أن أطلع عليه بناء على صفحات لخصت لي منه عن ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

[سورة آل عمران/ الآية: ١١٠]

وقد استهديت مشعلاً الكتاب فأهداني إياه، وسألني عن مصدر مقالتي: هل قرأت الكتاب؟!.

فقلت: لا، وإنما تلي علي منه.

قال مشعل: إم.. ومطها مطًّا طويلاً.

قال أبو عبدالرحمن: فكان ذلك أشد علي من وقع النبال!.

فعاهدت ربي بعدها أن لا أكتب إلا بعلم وتقصٍّ!.

قال أبو عبدالرحمن: قال ذلك مشعل وهو يستلم مني الأثر النفيس «أحديات الخيل» لوالده معالي الأمير أبي زيد محمد الأحمد السديري، وقد شرحت الجزء الأول وبيضته فاخترمته المنية رحمه الله قبل أن أتمه، ولم يبق مشعل عندي مسوداته لأنجز المشروع.

وكان الأمير رحمه الله حريصاً على قيامي شخصيًّا بشرح الكتاب وترتيبه عقب زيارتي له صحبة الأستاذ محمد الحمدان بالخفيات على طريق حائل قرب بريدة، فصادف ذلك نزول مطر غزير مع جو خلاب فتيامن بنا - والفأل حسن، والطيرة مذمومة - فانبسط لنا وأكرمنا غاية الإكرام.

فإن أراد مشعل بعث الكتاب من مرقده فلي حق عليه أن يترك لي معاودة الجزء الأول بشرحي فلي فيه هنات وتصحيفات وأوهام.

ولا أدري لماذا حجب مشعل هذا الأثر النفيس؟.. فإن كان المزايدون على اللغة شبهوا له أن هذا أثر عامي، والعامية يجب أن توأد، وأنه امتثل لهم: فبئس والله ذلك الرأي من رأي، ولا بارك الله مثل ذلك الامتثال.

بل هو والله لغة وأدب وتاريخ شحيح، ولايزال الأدب العربي يسترفد من الأدب الخواجي، فكيف لا يفيد من العامية وهي بنت العرب؟.

ولاتزال الفصحى تقترض من العجم والفرس واليونان والحبشة، أفلا نأخذ من بنت العرب ما كان على أسلوب النمو المشروع للغة، وما كان فصيحاً لا ذنب له إلا استعمال العامة؟!.

قال أبو عبدالرحمن: وكلمة يابن السدارى طار بها الناس كل مطار حتى شعراء العامية!!.

وفي عهود سلمت براجمه من الأوخاز طاروا بكليمتي عن أغيلمة الصحافة حتى قال لي بعضهم منذ أشهر: إن أولادي في طولي!.

وأذكر أنني والأستاذ سليمان الحماد استرخينا القيلولة بعد وجيبة غداء، وكل واحد منا يردد فقرات من إبداعه.

وكان الحماد يقول: إنني لا أخشى من أحد، وإنما أخشى أن أحسد نفسي!!.

فقلت له: لست بدونك!!.

وذلك من باب تبادل الإعجاب بالأنفس زادنا الله تواضعاً!.

فدندنت له بمقاطع شعرية نثرية من هجائي للأستاذ تركي بن عبدالله السديري رئيس تحرير جريرة الرياض.. كتبتها دفاعاً وكان حفظه الله هو البادىء.

وهذا الهجاء، وإهابتي بسمو الأمير نايف، وليت للبراق عيناً، وقرار الفصل، وأشياء مثلها كانت من الشعر النثري المرقص!!.

ولحلاوة هجائي لتركي كنت ساعتها أحفظ مقاطع منه وأرددها كقولي:

أنت نونية ابن كلثوم التي غنى بها بنو تغلب!.

أنت شوارد أبي الطيب التي يسهر الخلق جراها!.

أنت القافية التي أنفقت بنات المحلق!.

أنت صخرة الأعشى التي كسرت روق الوعل!.

أنت أنت وكفى!.

قال أبو عبدالرحمن: ومقاطع من هذا النوع ليس فيها شواكيش، وإنما

هي أوخاز لطيفة!.

ولقد نفحت مشعلاً والصافي والجفري بشيئ من أوخازي عن سلامة صدر، وترقُّبٍ للذة من حلاوة النصر!.

قال أبو عبدالرحمن: وكنت إلى هذه اللحظة أخجل من مقابلتي لتركي، لأنه غمرني بفضله، ولكن لابد من الانتصاف.

إلا أنه ـ ما شاءالله ـ لا يعبأ بمن يغمز في الظلام!.

وأما الإنصاف فعندي من عاطر الذكر عن تركي شيىء كثير.

وكانت تعجبني الكلمة المليحة تؤثر عني وإن كانت أوخازاً، فقد أخبرني الشيخ عبدالعزيز الحربي أنه جرى مجرى المثل لدى شباب الصحوة بالحجاز قولي وقد سئلت عن أحد ذوي الحداثة: الغذامي حداثي، ولكنه يصلي!.

قال أبو عبدالرحمن: وأصحح القصة الآن بأنني إنما سئلت عن الأستاذ عبدالله بن عبدالرحمن الزيد، فقلت ما قلت!.

ووجدت زميلاً كريماً بالقاهرة ـ وهو سعودي ـ يحفظ مقدمتي لكتيبي المراهق «نظرات لاهية» من مثل: «أنا إن تجليت لكم متصابياً وقعتم في أسري وخلبي، وإن بدرت لكم مخاشناً أنغضتم رؤوسكم».

قال أبو عبدالرحمن: النظرات اللاهية من لهو اللهو، وهو وريقات، وأكثرت الصحافة والنقاد من الكتابة عنه، وكان القصيمي معجباً به إلى أقصى حد.

ثم صدرت لي كتب وتحقيقات مثل تحقيق المذهب لأبي الوليد الباجي، وعملي فيه فحل، ولم تكتب عنه الصحافة حرفاً سوى مجلة العرب بغمز، وهو من الأعمال الفكرية الشائكة المحررة، وإنما كاتبني بعض المغاربة.

قال أبو عبدالرحمن: كان عصر «سلمت براجه» مزهراً مورقاً مليحاً رغم الأوخاز، وقد قال الزاجل رحمه الله تعالى: ياما جرح الورد أيادي.. حتى الجناينية!!.

قال أبو عبدالرحمن: أعود فأقول: «أنا مع مشعل السديري ولست معه».

وأعني بذلك ما أعانيه منذ نشأتي العلمية إلى الآن.. لا أكون صديقاً حميماً موافقاً بإطلاق غير مخالف بإطلاق لذوي تمذهب أو منهج أو مدرسة أو ظاهرة فكرية أو أدبية أو فنية، لأنني منذ عقلت عظيم القناعة بحكم فلسفي تجريبي يقول: «لا شيىء يتمحض للحق أو الباطل، والخير أو الشر، والجمال أو القبح.. مهما استقرأت ما في البحر من درة، وما في البر من بعرة».

فمن جانبك يا مشعل فأنا والله لا أعشق العالم النحرير بغير طبع الأديب ورشاقة الفنان.

ويعجبني أن يكون العابد العامل شديداً على نفسه تورعاً وتقشفاً وتقللاً من المباح على أن يكون أكثر الناس توسيعاً على أهله وولده، وأرفقهم بأبناء أمته مسامحة ومعايشة ودعوة وتيسيراً وتبشيراً.

وأمقت خطيب الفتنة وتكدير الصفو.

أمقت الرويبضة يشرئب للفتنة يمتغط فيقول: أنا أسيود رأس هلموا إلي!!.

ويعجبني أن نرث علم ابن تيمية على الحقيقة فهماً ووعياً، وأن نرث سيرته، فقد كان يناظر ويحاور ولا ينقطع، فأسلم على يده عدد من أهل الملل، واهتدى على يده عدد من أهل النحل.

ويعجبني طالب العلم يفرق بين ما يجب عليه أن يعتقده هو لأنه محض

اجتهاده، وما يجب عليه أن يترك للمسلمين اعتقاده لأنه مما يتسع فيه الأمر لكل ذي اجتهاد منهم.

فالإثم عن المخطىء مرفوع عدلاً من الله بمقتضى تقدسه لأنه سبحانه.. وتسبيحه تنزيهه.

وللمخطىء أجر واحد رحمة من الله وكرماً وتفضلاً وإحساناً.

وأما الجاهل فيعذر بدون أجر في بعض الأحوال، ويكون مأزوراً غير مأجور في أحوال.

ومن جانبك يا مشعل أمقت دعوى معاصرين في ذنب الدنيا - الله أعلم بسرائرهم - ادعوا بشاهد الحال وبالمقال أحياناً أنهم أورع من السلف أهل القرون الممدوحة، فضاقت صدور بعض المعاصرين ادعاء عن قبول ما قبله جمهور سلف القرون الأولى الممدوحة من مباح الأدب ولمه وترطيبه وكذيباته.

قال أبو عبدالرحمن: لله فحول السلف من الفقهاء والمحدثين والمفسرين ما أوسع صدورهم، وأصدق أفعالهم!.

فأنا يا مشعل مثلك أو أشد حنيناً إلى عهود: سلمت براجمه من الأوخاز.

ومن جانبي فلابد من التبصر فيما نحنُّ إليه لنعلم أنه من متع الحياة الدنيا، ومن مكملات الشخصية ظرافة وجرياناً.

ولا ننسى أننا فقدنا في عصر «سلمت برجمه» ما نحن سعيدون به اليوم رغم المنغصات.

ففي ذلك العهد كنا مستعبدين لعلب الليل بتأوهاتهم وقسماتهم باسم الفن والأدب.

وفي ذلك العهد زار أبو الأعلى المودودي الرياض فما علم به أحد إلا

من زارهم هو كالشيخ حمد الجاسر .

ثم مات فريد الأطرش، وعبدالحليم حافظ، وزارنا هاني شاكراً قادماً هارباً من العراق فكان ذلك الشغل الشاغل في صحافتنا .

وانعكس الوضع فحلقت شهرة وعاظ ذوي ضحولة وجماع فتاوى مشايخ، وكاد يفقد من يحمل فقهه هو .

ومات الموسيقار محمد عبدالوهاب قريباً فمر مروراً خافتاً .

ولم يأب السلف من مؤرخينا أن يترجموا للموصلي وزرياب ! ! .

وفي ذلك العهد تخرج بعيد الأذان الثاني لصلاة الجمعة فتجد السيارات مطربلة أمام البيوت لأناس ينامون بعد الفجر بسويعة ولا يحضرون صلاتها، ويقومون قبيل المغرب في الأصيل مع اصفرار الشمس ! .

ولا تجد في المسجد إلا بضعة صفوف ! .
أما في غير الجمعة فلا تجد إلا أفراداً ! .

وكانت قراءة أكثر الأئمة تؤذي . . لا حلاوة صوت، ولا جودة تجويد، ولا رعشة تهز القلوب ! ! .

ولو غلط الإمام في سورة من جزء النبأ ما وجدت أحداً يحسن الفتح عليه، لأن الذكر كاد يرفع من الصدور .

ولا أحد يتعنى بالحديث أو يقتني مراجعه سوى إمام المسجد يقتني رياض الصالحين ليتلو منه بعد العصر حديثين على أشباه العوام .

أما اليوم فجيلنا يحفظ القرآن بالقراءات العشر ! .

وبالأمس يمدح المفكر، واليوم يمدح الحافظ، فحفظوا متون الصحاح وكثيراً من السنن والمختصرات كبلوغ المرام، وحفظوا مجموعات المتون

النظمية والنثرية في علوم الآلة.

وكل ذلك يبشر بجيل حفاظ مفكرين في آن واحد، وقد أخسأ الله نوايا عبدالله القصيمي منذ أربعين عاماً عندما تخوف من جيل الحفاظ في كتابه العالم ليس عقلاً، فزعم أن ظهور محدث في العالم العربي أعظم خطراً من قنبلة هيروشيما!.

وتلك هي الكلمة التي تقولها المؤسسات الكافرة اليوم التي تنحرنا بالسلاح الفتاك، وتذيق بعضنا بأس بعض بالعملاء والمضللين، وترهبنا بالتضليل الفكري وزرع الشبه في عقول ناشئتنا.

وفي ذلك العهد قلَّ أن يوجد من له ورد عقب إحدى الصلوات الثلاث: العصر، أو المغرب، أو الفجر!!.

وقل من يوجد له مصلى في أعماق بيته في جوف الليل.

فلابد من الجمع بين الحسنيين اللتين في العهدين، فالجمع بينهما عهد ثالث أسعد.

قال أبو عبدالرحمن: وأنا اليوم لا مدرسة لي ولا تلاميذ، بل خصوماتي الفكرية الهادئة مع كل أحد.. لا أريد أن يحصرني عنق الزجاجة.. ولا أريد أن يصفو لي وأصفو له إلا من عشق المسلم عالماً فناناً وسيع الصدر والعذر في معاملته للآخرين.. وهم قلة، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والله المستعان.

وكتبه لكم:

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

ـ عفا الله عنه ـ

منتصف ليلة الخميس ٢٦/ ٥/ ١٤١٤هـ

الرياض دارة ابن حزم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين.

كتب مخطوطة قيد التحقيق

- كتاب الدواسر ٩ أجزاء.
- كتاب آل عائذ جزءان.
- آل فضل خمسة أسفار.
- من أخبار القبائل والبلدان.
- تحقيق جزء الجلابي في الحديث والأدب.
- مسند بلال للزعفراني.
- العقل التاريخي.

يتحدث عن بدايات مثل ثقافة الديناصور ونهايات عن أفكار المسلمين والغربيين حول انتهاء بعض الحضارات القائمة.

كتب مطبوعة

- علمًا أنه طبع للمؤلف حوالي مائة عنوان ما بين كتاب من عدة مجلدات إلى رسائل صغيرة، وتتناول هذه المؤلفات مختلف الفنون والمعارف فبعضها في الدين والأدب والتاريخ وبعضها في النقد والشعر والفلسفة وقسم آخر في اللغة والرحلات والأنساب، وبعضها في الأسواق والمكتبات، وبعضها نفدت طباعته.

آخر هذه الكتب

- «شيئ من التباريح».

الذي بين يديك وهو نتف من أيام الصبا، وذكريات القرية، وتباريح الكتابة والكتّاب.